

الاسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله

تأليف

عباس محمود العقاد

ملزم الطبع والنشر

دار الكتب الحديثة

لصاحبها : توفيق عفيفي

١٤ شارع ابراهيم باشا

obeykandi.com

قوة غسالبة

كان التقليد التاريخي في القرن السادس للميلاد أن تتقاسم العالم المعمور دولتان كبيرتان ، كلتاهما حرب للأخرى تنافسها ولا تأمنها ولا تهدأ عن حربها فترة من الزمن إلا ريثما تستعد لمعاودة الكرة بقوة من الجند والسلاح أعظم من القوة التي جردتها عليها في حروبها الأولى .

وكانت الدولتان المتنافستان في ذلك القرن دولة المشرق وهي دولة الآكاسرة ، ودولة المغرب وهي دولة القياصرة : فارس وبيزنطة ، ولا ثالثة لهما في العالم المعمور بين القارات الثلاث .

جهدت كل من هاتين الدولتين ألا تدع بقعة من البقاع المعمورة في القارات الثلاث بعيدة من سلطانها أو قادرة على عصيانها .

وكانت بينهما صحراء جرداء تحفل الدولتان بما حولها ولا تنكترتان لما يجري في داخلها ، وامتد سلطان كل منهما إلى الجانب الذي يليه فاتخذت فيه أتباعا يطيعونها ويحتمون بها ويلوذون بجوارها : فارس تسيطر على الحيرة واليمن ، وبيزنطة تسيطر على أرض غسان والبتراء وتتهم أن تنصب لها أميراً على الحجاز يدين لها بالولاء ويحرس لها طريق الشام من أوله في الجزيرة العربية ، ثم لا يعنيها الأمر عناية جد تنتهي فيه إلى عمل فاصل تجاوز به التردد والشروع ، فليس الأمر من الخطر عندها بحيث تفرغ منه على قرار .

أما الخطر الذي فرغت له كلتا الدولتين فهو الخطر من إحداهما على الأخرى ، والخطر من قبل النهرين في العراق ومن قبل النيل الكبير في وادي النيل . فلم تكن بقعة من هذه البقاع قد خلت طويلا من جنود الدولتين منتصرين أو منهزمين ، ولم تزل الحرب بينهما سجالا في هذه الأودية وما جاورها ، ولم تزل كل منهما على أمان من قبل الجزيرة الجرداء .

نعم كان جيش من الفرس قد انهزم في وقعة ذي قار على طرف من أطراف تلك الجزيرة ، ولكنها هزيمة حرس في ولاية كما تخيلوها وليست هزيمة دولة تنازل قرناً لها من دولة أخرى جديدة بالخوف منها وحفز الهمم للتغلب عليها ، ومثلها في عصورنا الحديثة كمثل الهزائم التي أصيبت بها الدولة البريطانية يوم كانت تدعى سيدة البحار أو يوم كان القائلون منها يقولون إن الشمس لا تغيب عن أملاكها : هزائم تارة في حدود الأفغان أو عند أعلى النيل أو على طرف القارة السوداء في الجنوب ، ولكنها تنهزم فيها وتبقى بعدها سيدة البحار أو غالبية على كرة الأرض بين مشارقها ومغاربها .

وكذلك كانت فارس بعد وقعة ذي قار ، فلم تتبع هزيمتها بخذر أو احتراس من تلك الجهة ، وظلت على عهدتها من الخذر حيث تخشى الخطر ، فلا ترفع عينها عن بزنطية وأتباعها في أودية الأنهار أو بين أرجاء الهلال الخصيب ، ولا تحسب هي ولا صاحبها بزنطية أن خطراً عليهما قط متوقعا من جهة الجنوب .

فلما جاء كسرى رسولاً من قبل هذا الجنوب وسال عن شأن هذا

الرسول فقبل له إنه نبي في العرب يدعو إلى دينه ... ضحك غاضباً
أو غضب ضاحكاً وأمر من يذهب إلى ذلك النبي الجسور فيأتيه به
حيّاً أو ميتاً .. ليلاقى جزاءه على هذه الجسارة التي اجتراً بها على
الشاهنشاه ملك الملوك .

ولما تسامع القوم في الجزيرة العربية أن ذلك النبي يهيم أن يحارب
القيصر في عقر داره سخرّوا وقالوا فيما بينهم عساه يحسبها غزوة
من غزوات البادية .

لا بل قيل ذلك ، أو شبيه ذلك ، بعد ثلاثة عشر قرناً من القرن
السادس الذي استعظموا فيه ما استعظموا من جرأة النبي العربي على
عروش الأكاسرة والقيصرة ، فكان من المؤرخين المحدثين من كتب
تاريخ الوقائع التي دارت بين أتباع ذلك النبي وبين جبابرة الفرس
والروم ، ومن كتب في تاريخه هزيمة أولئك الجبابرة أمام أولئك
الأتباع ، ولكنه حين روى النبأ عن رسل النبي إلى كسرى وقيصر
رواه وهو يتعجب ويقول شديداً لما قيل يومئذ قبل النصر والهزيمة :
عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية ، أو عساه قد زهاه النصر
في مكة والمدينة فلم يدر ما المدائن وما القسطنطينية وراء
الرمال والبحار .

إن أعجب العجائب لما ينقضي على وقوعه مئات السنين ثم
يتعاضد من يرويه حتى ليوشك أن يرتاب فيه .

وكان ما جرى للدولتين يومئذ أعجب العجائب في تواريخ الدول
هن قديم وحديث . فقد هزمت الدولتان معاً في بضعة سنوات ، ولم

يأت الخطر عليهما من مكان تتوقعان خطره إحداهما أو كلاهما ،
بل جاء من المكان الذي هان شأنه حتى لم يحسب له حساب .

جاءت القوة التي هزمت الدولتين في وقت واحد من وراء الرمال
أو قل من وراء المجهول أو من وراء الغيب ، ولا تعدو الحق
فيما تقول .

قوة غالبية لم تصمد لها قوة .

قوة نجمت من حيث لا مخافة ولا مظنة ، فما هي تلك القوة ؟
ولبست هي قوة دولة ولا قوة سلاح . !

قيل فيما قيل إنها خشونة البادية غلبت ترف الحضارة ونعمة
الرخاء ، ولكن الدولتين اللتين انهزمتا معاً قد كانتا تحميان الملايين ممن
لا يعرفون من العيش غير خشونته وشظفه ، وكانت فارس تحكم من
حولها قبائل لم تعرف غير الجبال والقتال ، وكانت بزنطة تحكم على
تخومها أشباه تلك القبائل في خشونتها وقوة مراسها ، وظلت تحكمها
وتهزمها كلما أغارت عليها من غربها أو شمالها ، بعد أن تلاحقت
هزائمها في وقائعها مع أبناء البادية العربية ، وسلبت بالهزيمة بعد
الهزيمة تسليم الخيبة والاضطرار .

وقيل فيما قيل إنه احتقار العرب للعجم ، وكل الناس عجم
عند من ينطقون بالضاد .

ولكنه سلاح كان ينبغي أن يصدق من الجانبين ، وأن يغلب به
العجم في بعض ميادينهم إن لم يغلّبوا به في الميادين كافة حيثما التقى
الخصمان المتساويان في ذلك السلاح ، بل لعل العجم كانوا أشد احتقاراً

للعربي في تلك الحقبة على التخصيص ، وقد حدث في إحدى وقعات العراق أن زعيما عربيا من يلوذون بدولة فارس عرض على مهران قائد الفرس أن يتولى عنه حرب خالد بن الوليد لأن العرب أعلم بقتال العرب ، فنضب جنود مهران لأنهم سمعوه يقول لذلك الزعيم العربي : « صدقت . لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا في قتال العجم » وثاروا به يستهزمون أن يقول « لذلك الكلب » ما قال ، ولم يرضوا عن هذه المجاملة لمن يريد نصره حتى قال لهم : « دعوني . فأني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم . . فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلدكم أعداؤكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء » .

ألا أن هذا « الاحتقار » سلاح موفور في المعسكرين ، فإن كان للعرب نصيب كبير منه فما كان عند العجم منه فهو نصيب غير صغير . على أن العرب الذين حاربوا الفرس والروم وانتصروا عليهم لم يكونوا جميعاً من أبناء البادية ولا من الناشئين على النضف والشدة ، بل كان منهم أبناء نعمة وثناء ، وكان قائدهم الأكبر - خالد بن الوليد الذي قال الزعيم العربي لقائد الفرس مهران إنه أعلم بقتاله - مخزوميا من أغني السروات في بني مخزوم ذوى الجاه العريض والثراء المستفيض ، إذ كان جده - كما ذكرنا في سيرته - المخيرة بن عبد الله الذي كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينسب إليه فيسمى المخيرة تشرفا بالانتساب إلى الفرع الذي أناف على الأصول ، وكان أبوه الوليد بن المخيرة الملقب بالعدل وبالوحيد لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قریش كلها كسوة مثلها سنة أخرى ، وكان عمه

هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ، وبوفاته أرخت قریش
كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقاً بمكة ثلاثاً لحزنها عليه ،
وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه ، له بيت للضيافة
ياوى إليه من شاء بغير استئذان ، وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة
الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه
من السكبة كما أشار النبی علیه السلام قبل الدعوة الإسلامية .
أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس
بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة
الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروایات ، فقد أشار عليهم أن
يكملوا الحکم إلى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من
يرفع الحجر إلى مكانه ، فارتضوا مشورة وتم صواب المشورة
بتوفيق البشارة النبوية قبل إهلالها على العالم بسنين . ولقب أبو أمية
زاد الراكب لأنه كان يكفى أصحابه فى السفر مؤتمهم فلا يتزودون
بزاد . . . ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف
إلى مزاياهم المختلفة مزية ملاحظة لها شأنها فى كل مجتمع إنسانى وليس
شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص . فقد كانت هذه القبيلة
على كثرة الأقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر
العربية ، وبقیت لها هذه الشهرة إلى ما بعد قيام الدولة العباسية ،
إذ كان يقال لأبى العباس السفاح : « إن المخزوميات رياحین العرب
وعندك منهن يا أمیر المؤمنین ريحانة الرياحین . . »

فإذا كان المقصود بترف الروم والفرس ترف الطبقة التى يخرج
منها القادة والسادة فليس فى قادتهم من أحاطت به نعمة الثراء

كما أحاطت بقائد المسلمين الأكبر في حربهم للدولتين ، وهو الذي سماه صاحب الدعوة الإسلامية بسيف الإسلام .

ولا ننسى أن الجيوش الإسلامية لم تصل إلى ميادين العراق وفلسطين حتى كانت قد انتصرت على جيوش عربية من البدو والحضر قد نشأت مثل نشأتها وتدربت على القتال مثل دربتها وعرفت من الثرف والخشونة مثل ما عرفت في بداوتها وحضارتها .

ولا ننسى أن الظاهرة قد تكررت حيث لا عرب ولا روم ، وحيث كان الفرس في صفوف المنتصرين مع أمراء الإسلام . ففي القرن الثاني عشر للميلاد كان السلطان محمد غوري الأفغاني يحارب قبائل « راجبوت » الهندية التي اشتهرت بالشجاعة والفروسية في العالم القديم من أقصى الديار الآسيوية إلى أقصاها ، وكان على رأسهم قائدهم « برتوي » الذي قيل عنه إنه لم يعرف الهزيمة قط في منازلة قرين ، فانتصر الجيش الأفغاني بمن فيه من الأفغانيين والأتراك والفرس على جيوش الراجبوت بعد حرب زبون كان النصر فيها بحالا بين الفريقين ، وأوشك الأمير الغوري أن يقع في إحدى معاركها أسيراً مشحناً بالجراح في قبضة عدوه العنيد .

وتكررت الظاهرة في المغرب حيث كان المهزومون من قبائل البربر التي لم تعرف في تاريخها القديم غير الخشونة والقتال ، وكان تكرارها في موطن شتى دليلاً على أن القوة التي انتصر بها دعاة الإسلام لم تنبعث فيهم من خشونة البادية العربية ولا من هوان شأن

العجم على العرب ، ولا حاجة إلى قول قائل إنها لم تنبعث من بأس الملك ولا من عدة السلاح .

فلا مناص إذن من الرجوع بها إلى السبب الذي اتفق عليه المؤرخون أو كادوا بعد التعلل لها بجميع الأسباب .
لا مناص إذن من الرجوع بها إلى العقيدة التي حفزت أولئك المجاهدين على اختلاف الأقوام والأزمان .

غير أن الرجوع بها إلى العقيدة لا يختم المطاف ولا يغني عن مزية في هذه العقيدة تمتاز بها بين العقائد الكثيرة التي سبقتها أو لحقت بها ولم تنبعث منها قوة كهذه القوة ولا ظاهرة كذه الظاهرة بعد تجربتها من العوامل الأخرى .

فما كانت جيوش الروم ولا جيوش الفرس خلواً من عقيدة يؤمنون بها ويقبلون على الموت في سبيلها ، وما كانت قبائل الهند أو آسيا الوسطى تجهل الدين أو تهمله في معيشتها اليومية فضلاً عن المراسم التي تصحب المتدين من مولده ولا تفارقه مدى الحياة .

أيقال إنها دفعة الدين الجديد ميزت عقيدة الإسلام على سائر العقائد في ذلك التنازع بين الدول والأديان ؟

إن دفعة الدين الجديد ولا شك سبب لا يهمل في هذا المقام ، وقد يسبق إلى الخاطر لتفسير قوة الدعوة في القرن السابع للميلاد وفي القرن الثاني عشر يوم كان القائمون بالدعوة في آسيا الوسطى أقواماً من الأفغان والترك دخلوا حديثاً في الدين .

لكن كم من عقيدة جديدة صنعت مثل هذا الصنيع ؟ وكم ظاهرة كهذه الظاهرة تكررت في تواريخ الدول والأديان ؟

وقوة صاعدة ١٠٠

إن العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبية وحسب في إبان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صاعدة بعد مئات السنين ، ولا بد من تفسير لهذه القوة الصاعدة كما لا بد من تفسير لتلك القوة الغالبة . فإن القوة التي تصمد كالقوة التي تغلب في حاجتهما إلى التفسير ، أو لعل القوة التي تصمد أولى بالتفسير من القوة الغالبة ، لأنها تدافع فتتقوى على الدفاع حيث لا عادة عندها للغلبة في معترك الصدام والصراع

وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال الشدة والسطوة ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون .

ولقد تداولت الدول بقاع الأرض من القرن السابع للميلاد إلى العشرين : قامت دول إسلامية ثم انهارت أمام المنافسين من أبناء دينها أو أبناء الأديان الأخرى ، وحدث في فترة من الزمن خروج المسلمين من أوربة الغربية ودخولهم إلى أوربة الشرقية ، ودالت دولة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وقامت دولة الآستانة أو اسلامبول ، ثم ظلت هذه الدولة وحدها كفوفاً للدول الأوروبية مجتمعات أو متفرقات حتى تداعت أركانها وتصدع بنيانها وبقيت قائمة لاختلاف الطامعين في ميراثها على تقسيمها ، وتلاحقت الضربات على البلاد الإسلامية بين هزيمة واضطهاد وتمزيق وتفريق حتى تمكن منها المستعمرون فلم تبقى منها واحدة تنعم بقسط من حرية الحكم وسيادة

الاستقلال ، ومن كان منها مستقلاً كالدولة العثمانية أو الدولة الإيرانية أو الدولة الحسينية بالمغرب الأقصى كان افتيات المستعمرين على حقوقها أشد وأقصى من افتياتهم على البلاد التي فقدت حريتها واستقلالها ، وانقضى القرن التاسع عشر كله والأمم الإسلامية مخدولة متخاذلة والدوان المستعمرة غالبية متحركة ، وخيل إلى الناظرين أن الحاضر والمستقبل جميعاً للاستعمار ، وأنه قد جمع القوة والعلم والحضارة فلا نجاة من قبضته للذين حرموا القوة والعلم والحضارة وأصبحوا في كل منها عالة على المستعمرين .

ثم انتهى القرن التاسع عشر فكيف رأى الناس منتهاه ؟
الاستعمار يتراجع ولا يظفر بغناء من سلطان المال والعلم والسلاح .
والإسلام تبرز له دولتان في آسيا عداد المسلمين في كل منهما يزيد على سبعين مليوناً ، وهما دولتا أندونيسية والباكستان . . وسائر الدول في آسيا وإفريقية تقترب من الحرية وتبتعد من ربة العبودية ، وهذه هي قوة الصمود بعد أربعة عشر قرناً من الدعوة المحمدية ، لا ينظر المؤرخ في أطوارها على تعدد ظواهرها وأدوارها إلا وجب عليه أن يفترض لها سراً عجيباً كذلك السر العجيب في صدر الإسلام : سر الغلبة من حيث لا تنتظر الغلبة على دولتي العالم في مدى خمس سنوات .

إن قوة الصمود هنا العجيبة كقوة الغلبة هناك ، ولعلها — كما قدمنا — أعجب من قوة الغلبة ، لأنها تملك الدفاع النافع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، لا بل تملك الدفاع ولا اتفاق بينها على الدفاع .

ونذع الصراع في مجال الدول المتداولة بين السطوة والخضوع وبين النصر والهزيمة ، فإن قوة العقيدة الإسلامية قد سرت مسراها في أرجاء العالم بمحزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفي إفريقية اليوم مائة مليون مسلم لا شأن في إسلامهم لدولة أو سياسة ، وقريب من هذا العدد مسلمون في السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه في الباكستان ، وقد يكون في الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين .

وهؤلاء جميعاً سرت فيهم عقيدة الإسلام بمحزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، أو كان للدول والسياسات شأن في إسلامهم من بعيد متقطع غير موصول ولا مقصود ، ولعله لو انحصر الأمر فيه لا يكفي لإسلام عدة من الناس تحسب بالآلاف والمئات ، ولا ترتفع إلى عشرات الملايين فضلاً عن مئات الملايين ، ولو حسب جهاد المجاهدين في سبيل إسلامهم بعدد الرؤس التي سقطت في ميدان القتال ، لكان الرأس الواحد هنا عدلاً في كفة الميزان الأخرى لمئات الآلاف

هذه القوة ، غالبية وصامدة ، تتطلب تفسيراً غير كلمة العقيدة مجردة من خواصها ومزاياها ، ولا غنى لها عن مزية تهيأت لها ولم تتهيأ للعقائد الأخرى التي لم يعرف عنها مثل هذه الغلبة ومثل هذا الصمود ، وتلك حقيقة فطن لها الباحثون في انتشار الإسلام من أصدقائه وأعدائه على السواء ، فذهبوا جميعاً يلتمسون الدواعي التي يسرت لهذه الدعوة ما لم يتيسر لغيرها ، وهم متفقون على انفرادها بالمزية الخاصة مختلفون في بيان تلك المزية على حسب اختلاف النية واختلاف

الرغبة في الحمد أو المذمة ، ومنهم مبشرون يلجأون إلى المزايا التي تعينهم على الاعتذار كلها وضح عجزهم عن تحويل المسلمين من دينهم أو وضح عجزهم عن مجارة الدعاة الإسلاميين في نشر دينهم بغير مشقة وبغير كلفة من المال والعتاد ووسائل التدريب والتنظيم .

فمن أسباب انتشار الإسلام في القارة الإفريقية - عند فريق من هؤلاء الباحثين أو المبشرين - أنه لا يمنع تعدد الزوجات ولا يحول بين الرجل الإفريقي وطلاق زوجاته أو الاحتفاظ بما شاء منهن كما يشاء .

ومن أسباب انتشاره عند الباحثين في سرعة الإقبال عليه بين الهنود أنه سوى بين الطوائف المنبوذة وغيرها من طوائف السادة والأشراف ، فأقبل المنبوذون عليه زرافات وبلغوا به من المسكنة الاجتماعية ما لم يكونوا بالغيه بالعقيدة المفرقة بين الطوائف والطبقات .

ومن هذه الأسباب عند الباحثين في سرعة انتشاره بين الأندلسيين أنه صادف ثمة شعباً فقيراً ساءت ظنونه بساداته من رجال الدنيا والدين وأنكروا من أولئك السادات الديويين والدينيين تعالياً عليهم واشتغالا عنهم بلذتهم وأبهتهم ، فرحبوا بأصحاب الدين الجديد ودخلوا في ملتهم لأنها ملة لا تفرق بين السادة والعبيد .

ومن هذه الأسباب أنه دين بسيط سهل القواعد والأصول لا يحوج المتدين به بعد الإيمان بالوحدانية وفرائض العبادة إلى شيء من الغوامض والمراسم التي يدين بها أتباع العقائد الأخرى ولا يفقهون ما حقواها .

وهذه كلها - على أصح ما تكون - أسباب محلية أو أسباب موقوفة
تصلح لتعليل انتشار الدين في بيئة معينة أو في زمن معين ، ولكنها
لا تلازم انتشاره في جميع البيئات والأزمان ، ومشكوك مع هذا
في صدق تعليل بعضها في البيئة الواحدة كما قيل عن تعليل شيوع
الإسلام بين الأفريقيين وقلة إقبالهم على العقائد التي تحرم
تعدد الزوجات .

فليس تعدد الزوجات من اليسر بحيث يقدر عليه كل من أراد به
أولئك الأفريقيين ، ومن كان منهم قادراً على تعدد زوجاته
وسراريه فهو يعددهن حتى الساعة كأنما ما كان اعتقاده أو كأنما ما كان
دينه بين الأديان الكتابية ، وسائر القوم من غير ذوى القدرة على
الجمع بين الزوجات الكثيرات قلما يعنيه السماح له بزوجة أو أكثر من
زوجة ، وقلما يوجد في بيئته سجل يحصى عليه عقود الزواج والطلاق ،
وقد أجمع الرجالون على صعوبة الاستعداد للزواج وتدير المهر المطلوب
بين قبائل إفريقية الوسطى ، فلا يتأهل الشاب للبناء بالزوجة الواحدة
إلا أن يكون ذا مال يحسب بما عنده من رؤوس الماشية والأنعام ،
ومن المستغرب حقاً أن يتخيل المرء إفريقياً يدخل في الدين ثم يخرج
منه لأنه حال بينه وبين البناء بزوجة جديدة غير التي ارتبط بها بعقد
من العقود على أيدي رجال الدين ، وأغرب من ذلك أن تتخيل
الإفريقي الأعزب منتظراً متسائلاً لا يدخل في الدين حتى يتبين
ما يبيحه له أو يحرمه عليه من روابط الزواج .

وأيا كان أثر العلاقات الزوجية في انتشار الإسلام بين الإفريقيين
فمن المحقق أن هذه المسألة خاصة لم يكن لها شأن في منافسة الأديان

الأخرى قبل القرن السادس عشر للميلاد ، فإن تحريم تعدد الزوجات لم يرد في كتاب من كتب العهد القديم أو كتب العهد الجديد ، وكل ما ورد في الإنجيل أن القس ينبغي ألا يزيد على زوجة واحدة إن لم يكن بد من الزواج ، وقد جمع شارلمان في القرن التاسع بين زوجتين وزاد عدد زوجاته على خمس كهن بقيد الحياة غير من في القصر من السراري والزوجات « غير الشرعيات » . . . واعترف قبل مماته بعشرة من أبناء هؤلاء عدا الثمانية الذين ولدوا له من زوجاته دسدراتا وهو لجارد وفستترادا (1) وعدا الأبناء الذين ولدوا له ولم يعترف بهم لأنهم كانوا على غير ما يجب من سمات الأمراء .

ومن الأوهام الشائعة كما قلنا في كتابنا عن الفلسفة القرآنية « إن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي أباح تعدد الزوجات بين الأديان الكتابية . . . » لأن الواقع الذي تدل عليه كتب الإسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم في كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان عملاً مشروعاً عند أنبياء بني إسرائيل وملوكهم فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى في حرم واحد ، وروى وسترمارك Westermarck العالم الحجة في شؤون الزواج على اختلاف النظم الإنسانية أن الكنيسة والدولة معاً كانتا تقران تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر في الحالات التي لا تعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج

[1] Desiderata, Hildegard, Fastrada .

الأسر الكبيرة ، وكل ما حدث في القرن الأول للمسيحية أن الآباء كانوا يستحسنون من رجل الدين أن يقتنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بته ، فكانت الفكرة التي ذهبت إلى استئصال الزواج الموحد هي فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فإن لم تيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شراً من امرأتين ، وكانت المرأة على الإطلاق شراً محضاً وحبالة من حبالات الشيطان ، بل أخطر هذه الحبالات ، واستكثر أناس من آباء الكنيسة وفقهاءها أن تكون لها روح علوية ، فبحشوا في ذلك وأوشكوا أن يباحقوها بزمرة الحيوان الذي لا حياة له بعد فناء جسده ... »

ومن الواضح أن هذه المسألة بذاتها — مسألة الزواج والمرأة — لم تكن من المسائل التي تسبق الدخول في دين من الأديان ، وما من أحد في إفريقيا وفي سائر القارات رأى المسلمين منفردين بإباحة الجمع بين النساء في البيت الواحد ، وما من وثني على الفطرة أباح له الإسلام كل ما كان يستبيحه من الشهوات على دين آباءه ، وأولها المسكرات التي تفسد بين البدائيين ويضيقون بمنعها أشد من ضيقهم بمنع تعدد الزوجات ؛ وما من عقبة قامت في وجه المسيحية بين الشرقيين أو الغربيين لأنها كانت تحض على الرهبانية أو تنظر إلى المرأة نظرتها إلى شيطان أو حبالة شيطان ، فإذا آمن المرء بفساد عقيدة آباءه وأجداده فلا مناص له من قبول الدين الذي كشف له ذلك الفساد ثم يعالج بعد ذلك طاقته على احتمال أوامره ونواهيه ، ولا يرفض الأوامر لأنه يعصيا أو النواهي لأنه يقدر على اقترافها ، بل يحاول أن يكف عن المعاصي والذنوب ويرتقي في الدين فوق مرتقاه.

ولو كان الإقناع المنطقي يكفي وحده لتعليل الظواهر الاجتماعية أو التاريخية لصح أن يقال أن الإسلام قد شاع بين طوائف المنبوذين في الهند لأنه يرفع عنهم لعنة المذلة والحرمان . فهم خلقاء أن يوازنوا بين منزلاتهم في دين آبائهم وأجدادهم ومنزلتهم في الدين الإسلامي فيختاروا أفضل المنزلتين ، وقد وازنوا واختاروا فدخلوا أفواجا في الدين الجديد .

غير أن الإقناع المنطقي لا يكفي وحده لتعليل ظواهر الاجتماع وظواهر التاريخ فيما له اتصال بأطوار السرائر على الخصوص ، أو لعل الإقناع المنطقي يكفي المؤرخ في تعليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية إذا اعتمد عليه في كتابة التاريخ ولم يجعل الناس جميعاً معتمدين عليه في أعمالهم منقادين له في أحاسيسهم ودخائل وجدانهم . فمن المنطق الصحيح أن يرجع المؤرخ بالحوادث إلى الأسباب الثابتة والعوامل المقنعة ، وليس من المنطق الصحيح أن تخیل الناس جميعاً منطقيين حين يؤمنون أو حين يكفرون ، ومنطقيين في تمييز الحق والباطل من الدواعي والأسباب .

والواقع في أمر المنبوذين الهنديين ، وفي أمر المحرومين جميعاً ، أنهم لم يكونوا أضعف إيماناً بعقيدتهم البرهمية من أبناء الطبقات العليا ، ولم يثبت قط أن التحول إلى الأديان الأخرى كان بينهم أكثر وأسرع مما كان بين الطبقات العليا ، وربما وجد فيهم من يصبر على قسمته لأنه يعتقد أنها شرط من شروط الخلاص الأبدي وكفارة عن المساوىء التي سلفت منه في أدوار الخلق الأولى ، وربما كان من

المحرورين في كل أمة من هو أثبت إيماناً على دينه من ذوى النعمة والثراء ، لأن جانب الوعد والأمل قوى في الدين ، ونصيب المحروم من الوعد والأمل أوفر من نصيب القانع المجدود .

وقد حدث حقاً أن أناساً من المنبوذين رحبوا بالدين الإسلامى ودخلوا فيه لارتياح نفوسهم إليه ولحسن ما عاينوه من القدوة الصالحة في سيرة المسلمين الوافدين على بلادهم والمقيمين بين ظهرانيهم ، ولكننا لا نجد من أسانيد التاريخ ولا من أسانيد العقل ما يفهم منه أن الهنود الذين أسلبوا كانوا جميعاً من طوائف المنبوذين ، بل لا نجد في تلك الأسانيد ما يفهم منه أن الأكثرين كانوا منهم ولم يكونوا من طبقات العلية وذوى الوجاهة في المجتمع أو في الدولة الحاكمة ، وقد تحول الهنود إلى الإسلام في بقاع الهند الغربية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حيث يوجد المنبوذون وحيث لا يوجدون ، وتحول أهل سومطرة وجاوة إلى الإسلام بهذه الكثرة أو بأكثر منها وهم بوذيون يقل بينهم المنبوذون ، وتكاد الروايات المحفوظة عن أخبار الإسلام في الجزر الجاوية أن تجمع على ابتداء الإسلام بين الأمراء والقادة ثم شيوعه بامرهم وهدايتهم بين رعاياهم الوثنيين ، ولعلها هي القاعدة المطردة في معظم الأمم الآسيوية من سكان الجزر إلى سكان القارة الوسطى سواء من كان على الوثنية أو من دان في صباه ببعض الأديان الكتابية كما حدث في إسلام « تكودارخان » أحد سلاطين المغول بارض فارس ، وهو الذى نقل لنا القلقشندى في صبح الأعشى كتاباً منه إلى السلطان قلاوون بمصر يقول فيه : « إن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ،

قد كان أرشدنا في عنقوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ،
والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام
بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده
وبريته ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . . . » .

وقد أسلم على هذا النحو بعض زعماء القبائل الأثيوبية ،
فلم ينحصر إقبال الآسيويين والإفريقيين على الإسلام في طبقة واحدة
من الرعية أو الرعاة ، وابتدأ التحول من العلية إلى من دونها كما ابتدأ
من الأتباع إلى السادة والرؤساء .

ومهما يكن من أثر الأسباب المحلية أو الموقوتة فلا بد من البحث
عن سبب عام محيط بجميع هذه الأسباب التي تختلف فيها بيئة عن بيئة
وزمن عن زمن وحالة عن حالة ، ولا بد من عامل واحد غير هذه
العوامل التي تحجب الإسلام تارة إلى الحاكم وتارة إلى المحكوم وتفتح
له السرائر في نفوس الضعفاء وفي نفوس الأقوياء ، وتجعله قوة
تعين الغالبين على الغلب وتعين المغلوبين على الصمود والدفاع ،
ولا تخفى حقيقة هذا العامل بعد هذا الشمول ، فإن حقيقته التي تتضح
من إحاطته بهذه العوامل كافة أنه عقيدة شاملة ، وأنه بذلك حقق
الصفة الكبرى للعقيدة الدينية على أتم شروطها ، فما كانت سريرة
الإنسان لتطمئن كل الاطمئنان إلى اعتقاد يفرقها ببدأ ويقسمها
على نفسها ويترك منها جزءاً لم تشمله بقوته ويقينه ، وقد يخرج
من سلطانه فيملكه سواه .

قلنا في ختام كتابنا عن عقائد المفكرين إنه « لا التباس اليوم

بين وازع الأخلاق ووازع العقيدة الدينية ، وليس اتفاقهما في الإباحة والتحریم أحياناً بالذی يمنع الباحث أن يعرف لها صبيغتها ويميز طبيعتها ، فلا يخلط بين أوامر القانون وأوامر الأخلاق وأوامر الدين .

« والغالب على الأوامر القانونية أنها إرادية تكتفي بتحقيق السلامة ولا تذهب وراء الأسلم الألزم إلى شوط بعيد ، والغالب على الأوامر الأخلاقية أنها لدنية تعمل فيها الإرادة شيئاً ولكنها لا تعمل كل شيء ، بل يتولى الشعور أهم البواعث في أعمال الأخلاق ، ويشاهد فيها كثيراً نزوع إلى ما وراء السلامة وال لزوم وتفضيل للأجل الأمثل من الأمور ، فصاحب الوازع الأخلاقي لا يقنع بفروض القانون ولا يزال متطلعاً إلى درجة أعلى من درجات القانونين باجتناب العقاب والتزام أدنى الحدود .

« أما الغالب على الأوامر الدينية أو آداب العقيدة فهو الشمول الذي يحيط بالإرادة والشعور والظاهر والباطن ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه ، ولا يقنع بالسلامة أو بالجمال إلا أن تكون معهما الثقة التي لا تنزعزع في صميم الحياة ، بل في صميم الوجود ، ومن السهل أن يقال إن حاسة القانون تتولد في الإنسان لأنه عضو في مجتمع وإن حاسة الأخلاق تتولد فيه لأنه فرد من أفراد النوع الإنساني كله ، ولكن ليس من السهل أن يقال إن الإنسان مهتم بمصيره في الكون لأنه عضو في المجتمع أو فرد من أفراد النوع وإنما يتدين الإنسان لأنه يهتم بمصيره ومعنى وجوده ويطلب له قراراً أوسع جداً

من علاقاته الانسانية أو علاقاته بالمجتمع ، ويجب أن يطلب عقيدة
تحتويه ولا يكتفى بعقيدة يحتويها ويريدها كما يشاء .

وعلى هذا الشرط — شرط الشمول في العقيدة — يكون الاسلام
هو العقيدة بين العقائد ، أو هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً
ومجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده ، وناظراً إلى دنياه
أو ناظراً إلى آخرته ، ومسالماً أو محارباً ، ومعطياً حق نفسه
أو معطياً حق حاكمه وحكومته ، فلا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة
دون الدنيا ، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ،
ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد أو لأنه جسد ينكر الروح
أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة أخرى ، رهيناً بوسااة
بينه وبين السماء يتولاها في المعابد سدة موكلون بالوسااة بين المخلوق
والخالق وبين العابد والمعبود ، ولكننا هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة
لديه في جميع حالاته وجميع حالاتها ، سواد تفرد وحده أو جماعته
بالناس أو اصر الاجتماع

إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو
المزية الخاصة في العقيدة الاسلامية ، وهو المزية التي توحى إلى
الإنسان أنه « كل » شامل فيستريح من فصام العقائد التي تشطر
السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق .

عقيدة شاملة

يبدد إلى الذهن أن الشمول الذي امتازت به العقيدة الإسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولا بد لإظهارها من بحث عويص في قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هي مما يراه الناظر الوثني أو الناظر البدوي لأول وهلة قبل أن يطالع على حقائق الديانة ويتعمق في الاطلاع .

ومن المحقق أن إدراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتفحطة في وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات ، وبخاصة في شعائرها ومراسمها التي يتلاقى عليها المؤمنون في بيئاتهم الاجتماعية .

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسلم في معيشتة وعبادته ، ويكفي أن يرى المسلم مستقلاً بعبادته عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن ليعلم أنه وحدة كاملة في دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبه في ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكراً للكهنة ووقفاً على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة .

لقد ظهر الاسلام في إبان دولة الكهنة والمراسم ، وواجه أناساً من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجود إلى حالة كحالة الوثنية في تعظيم الصور والتماثيل والتحويل على المعبد

والكاهن في كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة ، ولاح للناس في القرن السابع للبيلاذ خاصة أن « المتدين » قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لها ديانة أو شفاعة بمحزل عنه ، فالدين كله في المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعاً قطع متفرقة لا تستقل يوماً بقوام الحياة الروحية ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب إلى المعبد لتزود منه شيئاً تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة .

لا دين بمحزل عن المعبد والكاهن والأيقونة ، سواء في العبادة الوثنية أو في عبادة أهل الكتاب إلى ما بعد القرن السابع بأجيال متطاولة .

فلما ظهر المسلم في تلك الآونة ظهر الشمول في عقيدته من نظرة واحدة ؛ ظهر أنه وحدة كاملة في أمر دينه يصلي حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد من السكمان ، وهو مع الله في كل مكان ، وأينما تولوا فثم وجه الله .

وينذهب المسلم إلى الحج فلا يذهب إليه ليستتم من أحد بركة أو نعمة يضيفها عليه ، ولكنه يذهب إليه كما يذهب الألوف من إخوانه ، ويشتركون جميعاً في شعائره على سنة المساواة ، بغير حاجة إلى السكمانية والسكمان ، وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين للسكبة خداماً لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم إن شاء فلا سبيل لأحد منهم عليه .

فإذا توسع قليلاً في العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرسول ، وأن هذه الرسالة ليست من مناسك الدين ،

وأنها تحية منه يؤديها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لكل دفين .
عزيز محبوب لديه .

وإذا توسع قليلا فى مكان ذلك الرسول من الدين قرأ فى القرآن
الكریم : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى . . » .

وقرأ فيه : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ،
إن عليك إلا البلاغ » .

وقرأ فيه : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا
فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على
الرسول إلا البلاغ المبين » .

وقرأ فيه : « وما أنت عليهم بجبار » .

وقرأ فيه : « لست عليهم بمسيطر » .

وقرأ فيه : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

وقرأ فيه آيات لا تخرج فى وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات .

مر بنا أن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن
دينهم ودخولهم أفواجا فى عقيدة المسلمين .

مثل هذا لا يحصل فى أمة إسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من
مسلم يذهب إلى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك إليك فإننى
لا أومن به لأننى لا أومن بك ولا أرى فى سيرتك مصدقا لأوامرك
ونواهيك أو أوامره ونواهيه . .

كلا . ما من رجل دين يبدو للمسلم أنه صاحب الدين وأنه حين
يؤمن بالله يؤمن به لأنه أله ذلك الرجل الذي يتوسط بينه وبينه
أو يحطيه من نعمته قواماً لروحه .

« . . . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن
تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة
يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس أتمموا الفقراء
إلى الله والله هو الغني الحميد » .

نعم . كلهم فقراء إلى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم
إلا بالتقوى ، وكلهم في المسجد سواء ، فإن لم يجلدوا المسجد فمسجدهم
كل مكان فوق الأرض وتحت السماء .

إن عقيدة المسلم شيء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء
سره وجهره ، ومن كان إماماً له في مسجده فلن ترتفع به الإمامة
مقاماً فوق مقام النبي صاحب الرسالة : النبي الذي يبشر وينذر ، ولا
يتجبر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل وعليهم ما حملوا ، وما على
الرسول إلا البلاغ المبين .

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاسلام شأنه الذي لا يعرف لأحد حقاً
فيه أعظم من حقه أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو مكاناً يأوي
إليه ولا يكون الاسلام في غيره .

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين
الجسد والروح ، ولا يعاني هذا الفصام الذي يشق على النفس احتماله

ويحفظها في الواقع إلى طالب العقيدة ولا يكون هو في ذاته عقيدة
تعصم بها من الحيرة والانقسام :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا . ما جعل الله لرجل من قلبين

في جوفه » .

فإذا كانت العقيدة التي تباعد المسافة بين الروح والجسد تعطينا
من العمل حين يشق علينا العمل - فالعقيدة التي توحد الانسان وتجعله
كلا مستقلا بدنياء وآخرته شفاء له من ذلك الانقسام الذي لا تستريح
إليه السريرة إلا حين تضطر إلى الهرب من عمل الانسان الكامل في
حياته ، وحافز له إلى الخلاص من القهر كلها غلب على أمره ووقع في
قبضة سلطان غير سلطان ربه ودينه .

ومن هنا لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر .
لأن الأمر في الإسلام كله لله « بل لله الأمر جميعاً » .. « والله المشرق
والمغرب » .. « رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون »

وإنما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التي
لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر لأمر الله . وهذا التطويع
هو الذي أوجبه العقيدة الشاملة وكان له الفضل في صمود الأمم
الإسلامية لسطوة الاستعمار وإيمانها الراسخ بأنها دولة دائمة وحالة
لا بد لها من تحويل .

وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه
ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنًا في الزواج

لصاحبها وتنأى عنه بروحها وسريرتها ، وأبت على الإنسان جملة ان
يستريح إلى « الفصام الوجداني » ويحسبه حلا لمشكاة الحكم والطاعة
قابلا للدوام .

إن هذا الشأن العظيم - شأن العقيدة الشاملة التي تجعل المسلم
« وحدة كاملة » - لا يتجلى واضحا قويا كما يتجلى من عمل الفرد في نشر
العقيدة الإسلامية . فقد أسلم عشرات الملايين في الصحارى الإفريقية
على يدي تاجر فرد أو صاحب طريقة متفرد في خلوته لا يعتصم
بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة ، وthus صنع هنا قدرة الفرد الواحد
ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا
في البلاد التي انتصرت فيها جيوش الدول الإسلامية هم الآن أربعون
أو خمسون مليوناً بين الهلال الخصيب وشواطئ البحر الأبيض
والأحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين
من الملايين ، أو هم كل من أسلم في الهند والصين وجزائر جافة
وصحارى إفريقية وشواطئها إلا القليل الذي لا يزيد في بداءته على
عشرات الألوف .

وينبغي أن نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وإنكار حقوق
الروح . فإن الاعتراف بحقوق للجسد لا يستلزم إنكار الروحانية
ولا الحد من سبحاتها التي اشتهرت باسم التصوف في اللغة العربية
أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » في اللغات الغربية
• Mysticism

إذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم إلى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات ما كانت له حياة ناطقة وما لم تكن له حياة « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . وأشار إلى هذه الأشياء بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون أن الله أقرب إليهم من جبل الوريد وأنه نور السموات والأرض وأنه « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » .

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سمجات التصوف كل ما يستباح في عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد في أهل دين من الأديان طرق للتصوف تبلغ ما بلغت هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجه للمقابلة بين الإسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلاً في العقائد الصوفية . فإن إنكار الجسد في البرهمية أو البوذية يخرجهما من عداد العقائد الشاملة التي يتقبلها الإنسان بحملته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه .

وحسب المرء أن يرضى مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام .

كذلك يخاطب الإسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان ، وفي حكمة أن النظر بالعقل هو طريق الضمير إلى الحقيقة ، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقق بها الإيمان : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم

تتفكروا » ... « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ...
وما كان الشمول في العقيدة لينذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من
خطاب الإنسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً بغير بنحس ولا إفراط
في ملسكة من هذه الملكات .

وفي مشكلة المشكلات التي تعرض للتدين يعتدل المسلم بين الإيمان
بالقدر والإيمان بالتبعة والحرية الإنسانية ، فمن عقائد دينه « أن
أجل الله إذا جاء لا يؤخر » ... « وما يعمر من معمر ولا ينقص من
عمره إلا في كتاب » ... « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » ..
« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » .

ومن عقائد دينه أيضاً « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا
ما بأنفسهم » .. « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ..
« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » .

وليس في الإسلام أن الخطيئة موروثة في الإنسان قبل ولادته ،
ولا أنه يحتاج في التوبة عنها إلى كفارة من غيره . وقد قيل إن
الإيمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على نقض
ذلك أنه كان حافزهم الأول في صدر الإسلام على لقاء الموت وقلة
المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الأمر أن المسلم الذي يترك العمل
بحجة الاتكال على الله يخاف الله ورسوله لأنه مأمور بأن يعمل في
آيات الكتاب وأحاديث الرسول . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم
ورسوله والمؤمنون » ... بل حقيقة الأمر أن خلاصه كله موقوف
عليه ، وأن إيمانه بحريته وتدييره لا يقتضى بداهة أن الله سبحانه
مسلوب الحرية والتدبير .

وأصدق ما يقال في عقيدة القضاء والقدر أنها قوة للقوى وعذر للضعيف ، وحافز لطالب العمل وتعلّة لمن يهابه ولا يقدر عليه ، وذلك ديدن الإنسان في كل باعث وفي كل تعلّة كما أوضحنا في الفارق بين أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري وهما يقولان بقول واحد في عبث الجهد وعبث الحياة

فأبو الطيب يقول عن مراد النفوس :

ومراد النفوس أهون من أن نتعاضد فيه وأن نتفانى

ثم يتخذ من ذلك باعثاً للجهد والكفاح فيقول :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحيات ولا يلقى الهوانا

والمعري يقول إن التعب عبث لأنه لا يؤدي بعده إلى راحة في

الحياة ، ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد

تعب كلها الحياة فما أعجب بـ إلا من راغب في ازدياد

وعلى هذا المشال يقال تارة إن عقيدة القضاء والقدر نفعت

المسلمين ويقال تارة أخرى أنها ضررتهم وأوكلتهم إلى التواكل والجمود ،

وصواب القول أنهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك

التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول لأنها تشمل الأمم الإنسانية

جميعاً كما تشمل النفس الإنسانية بحملتها من عقل وروح وضمير

فليس الإسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس

هو للسلالة المساطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء المسخرين

دون السادة المسلمين ، ولكنه رسالة تشمل بني الإنسان من كل جنس وملت وقبيل : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ... « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض » « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابغين والصابغين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فهذه عقيدة إنسانية شاملة لا تخص بجمعة الله أمة من الأمم لأنها من سلالته مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصالح : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » وفي أحاديث النبي عليه السلام أنه « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى » .

وليس للإسلام طائفة يؤثرها على طائفة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات يتفاضلون بالعلم ويتفاضلون بالعمل ويتفاضلون بالرزق ويتفاضلون بالاخلاق .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » .

« والله فضل بعضكم على بعض في الرزق »

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

وإذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لأن الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف إنه أهل لمعرفة الله إذا جاهد وصبر وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، وإلا فإنه لمن المجرمين

« يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أأنتم لكننا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم . بل كنتم مجرمين »

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »

وما من ضعيف هو ضعيف إذا صبر على البلاء ، فإذا عرف الصبر عليه فإنه لأقوى من العصبية الشداء

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة

صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله
مع الصابرين »

فما كان الإله الذى يدين به المسلم إله ضعفاء أو إله أقوياء .
ولكنه إله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أنه
يكون مع الله ، والله مع الصابرين

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الأرض ثم صمدوا
لغلبة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون
بأس القوة مغلوبين مدافعين

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الإسلام بمزية لم تعهد فى
دين آخر من الأديان الكتابية ، فإن تاريخ التحول إلى هذه الأديان
لم يسجل لنا قط تحولا إجماعيا إليها من دين كتابى آخر بمحض الرضى
والاقتناع ، إذ كان المتحولون إلى المسيحية أو إلى اليهودية قبلها فى
أول نشأتها أمما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل
ذلك عقيدة التوحيد أو الإله الخالق المحييط بكل شئ ، ولم يحدث قط
فى أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول إلى
دين كتابى غير الإسلام ، وإنما تفرد الإسلام بهذه المزية دون سائر
العقائد الكتابية ، فتحولت إليه الشعوب فيما بين النهرين وفى أرض
الهلال الخصيب وفى مصر وفارس ، وهى أمة عريقة فى الحضارة كانت
قبل التحول إلى الإسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول إليه أناس
من أهل الأندلس وصقلية كما تحول إليه أناس من أهل النوبة الذين
غبروا على المسيحية أكثر من مائتى سنة . ورغبتهم جميعا فيه ذلك
الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بنى الإنسان على تعدد

الأقوام والأوطان ، ويحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما
امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع

وإبراز هذه المزية — مزية العقيدة الإسلامية التي أعانت أصحابها
على الغلب وعلى الدفاع والصمود — هو الذى نستعين به على النظر
فى مصير الإسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما حالة القوى الغالب
وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة الصمود ، الأقوياء إلى أن
يحين الحين ويتبدل من حالتي الغالب والمغلوب حالته التي يرجوها
لغده المأمول . ولئن كانت حالة الصمود مُحسنى الحالتين فى مواقف
الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الإنسانية فى جملة
والعالم الإنسانى فى جملة ، ليسكونن المصير فى الغد المأمول أَكْرَم
ما يكون مع هذه القوة وهذا الشمول .

الإسلام والمسلمون في القرن التاسع عشر

١ - الإسلام

انتهى الإسلام في أوائل القرن التاسع عشر الميلاد إلى نهاية جزره من القوة النفسية والقوة المادية . لأنه تلقى عن القرون الأربعة السابقة أثقالاً من المتاعب والأدواء لم تتمحن أمة من قبلة بمثلهما ، وكان بعضها كافياً للقضاء على دولة الرومان الشرقية ودولتهم الغربية ، وبعضها كافياً للقضاء على دول الفراعنة والآكسرة في الزمن القديم ، وإن في هذا الميدان من ميادين المقارنة التاريخية لفارقاً يبدو لنا في كثير من الصور بين عظمة الدين وعظمة السياسة ، فإن دول السياسة تذهب ولا تعود ولا يوجد بعدها من يحاول إعادتها ، ولكن دولة الدين — أو على الأصح قوة الدين — تبقى من وراء الأمم والحكومات كأنها القوام الذي تتعاقب عليه بنية في أثر بنية ، وهو باق يتجدد ولا يستسلم للفناء .

ولا نعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الإسلام بعد ما تلقاه من الضربات منذ القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلاد ، وإنما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعية التي صابر بها السكوارث والشهداء زهاء تسعة قرون ، ولم يزل بعدها « وحدة إنسانية » هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الأمم ولا تزال على أمل وثيق في المزيد .

وإن استطيع أن نتخيل تلك القوة المنيعة بنظرة سريعة نعرض فيها طائفة من الكوارث والشدائد التي صابرتها وصبرت عليها وهي محيطة بها من خارجها وناجاة فيها من داخلها وبين ظهرانيها .

فقد مضت القرون الأربعة بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر فى منازلة الجيوش الصليبية ، ولم تك هذه الحروب تنتهى حتى خلفتها حروب « المسألة الشرقية » وهى التى وقعت فيها الدولة العثمانية — وكانت يومئذ دولة الخلافة — تناهض غارة بعد غارة من غارات الدول الأوربية التى تألبت عليها وأطلقت عليها اسم « الرجل المريض » لأنها . . . كانت تتنازع ميراثه وهو بقاء الحياة

ولم تك هذه حروب المسألة الشرقية تنتهى بتنافس « الورثة » على بقية الميراث حتى أعقبتها حملات الشركات وأحباب الديون ومعها حملات الاستعمار والتبشير .

وقبل الحروب الصليبية وبعدها كان العالم الإسلامى عرضة لأهول الغارات من قبل آسيا الوسطى التى كانت ترسل الفوج بعد الفوج من عشائر التتر والمغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو وغازان و تيمورلنك وأتباعهم من القادة والأمراء وهم لا يفهمون معنى الغلبة إلا أنها قدرة على الفتك والتدمير ، وأن أعظم المنتصرين من يقاس انتصاره بعدد من قتل من المحاربين وغير المحاربين ، وعندما ضرب من المدن والقرى فى الطريق . . . ومنهم من كان يظهر الإسلام ويغير على ممالكه لأنها فى زعمه تأسس على خلاف شريعة الإسلام !

وفى خلال ذلك جميعه كانت الدولة الإسلامية تتسع وتمتد حتى

ينقطع ما بينها من الصلة ويتعذر على القائمين بها أن يجمعوها إلى حكومة واحدة ، وكان اتساع الآفاق يصحبه اختلاف المواقع واختلاف السكان واختلاف المصالح والأهواء ، فلا تلبث أن تتمزق وتنفرق ثم تتعادي وتتعاون على البغى والعدوان .

ضربات لم تصمد لمشها دولة من الدول الجامعة أو الدول التي سميت بالإمبراطوريات في الزمن القديم .

وقد رأينا كثيراً من المؤرخين يوازنون بين أخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية في مقدمتها ، أو يجعلونها فاتحة الضربات يتلوها ما تعاقب بعدها من الأخطار والأخطاء .

وهذه الحروب — ولا نكران — كانت من أعظم الأخطار التي امتحنت بها الأمم الإسلامية ، ولكننا نعتقد أن الخطر فيها إنما كان على نقيض المفهوم من هذا الخطر في عرف الجملة من مؤرخيها ، لأنها في الواقع لم تنهك قوى الأمم الإسلامية ولم تتركها موقنة بالهزيمة في نظر نفسها ، بل تركتها وقد أورتها إفراطاً في الثقة برجحائها وإفراطاً في سوء الظن بأعدائها ، وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم إلى عدة قرون .

ومن آثار الحروب الصليبية التي لا تفوت أحداً من المؤرخين أنها وقفت عوامل الشقاق بين الأمم الإسلامية رديحاً من الزمن ، وأنها جاءت بالترك العثمانيين من أواسط آسيا إلى أرض الروم ودفعتهم إلى مقابلة الغارة بمثلها في صميم الديار الأوروبية ، وأنها أيقظت الشرق الإسلامي كله من تخوم الصين إلى جوف الصحراء الكبرى في

القارة الافريقية ، وأن أحق الحق من الصليبيين كان أنفَعهم وأقدرهم
على إذكاء الحمية في نفوس الامراء والسلاطين ، وإن منهم لمن
شغله الملك فوق اشتغاله بالدين .

وقد كان يوسف صلاح الدين بطل الحروب الصليبية غير مدافع
في نظر الاوربيين ونظر الشرقيين . ولكن الصفة الى كانت غالبية
عليه ولا شك هي صفة الحلم الراجح والائانة الهادئة وإيثار الكسب
بالسلم والمطاوله على الكسب بالعنف والهجوم ، إلا أن هذا الرجل
الحليم الرصين ثارت ثأثرته حتى الجنون حين سمع بعزم « أرنولد »
صاحب الكرك على فتح الحجاز وإعدادة العدة في البر والبحر
لاقتحام المدينة والمساس بالقبر الشريف ، وسرى وعيد أرنولد
في المشرق كله فأنسى الخصوم خصومتهم والطامعون مطامعهم وأقسم
صلاح الدين ليقتل « أرنولد » بيده . . . فكانت وقعة « حطين »
التي تعد من وقائع التاريخ الحاسمة وظفر صلاح الدين بشرذمة من
الملوك والامراء عفا عنهم جميعاً إلا « أرنولد » هذا فإنه لم يقبل فيه
شفاعة من أحد وتناول سيفه وضرب عنقه بيده وهو يقول :
برئت من شفاعة محمد إن قبلت في هذا الإحق شفاعة شفيع .

وقد استنكر الصليبيون انتسبهم حماقة أرنولد هذا لانهم أدركوا
أنها استشارت من نفوس المسلمين كل قوة كامنة وأكسبتهم وقعة
« حطين » بعد هزيمتهم في الوقائع التي سبقتها ، وهكذا كان الشأن في
أحق الحماقات التي اقترفها شذاذ الصليبيين ، فإنها أفادت من أرادوه
بشرها ، وارتدت على أصحابها ، وعجلت بالتوفيق بين المتنازعين
والمتنافسين وقد بطلت فيهم حيلة الموفقين .

وليس هذا الذي نعنيه من آثار الحروب الصليبية في نفوس المسلمين ، فإنها آثار ظاهرة لم يغفل عنها أحد من مؤرخي تلك الحروب .

ولكننا نعني الأثر الذي عاد بالضرر الوخيم بعد عصر الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهذا الأثر الوخيم العقبى هو إفراط المسلمين في الثقة بأنفسهم وإفراطهم في سوء الظن بالأمم الأوربية وكل ما يأتي من نحوها ، حتى أوشكوا أن يوقنوا أنها لا تأتيهم يوماً بشيء يحتاجون إليه ، ولولا هذه الثقة لما خطر لرجل كسليمان القانوني في حصافته واقتداره أن يتبرع بالامتيازات الأجنبية لأبناء الأمم الأوربية الوافدين على بلاده ، ولم يكن في وسعها أن تقصره عليها لو لم يتبرع بها في غير أكثرات بعقبها .

إن الأمم الإسلامية قد أنكرت على الأوربيين الذين قدموا في جيوش الصليبيين ضروباً من الخشونة والجلافة حسبتها من البربرية التي تعافها وتشمئز منها ، ورسخ في نفوسهم أن هؤلاء القوم ليسوا بالمسيحيين لأنهم لم يعملوا بوصية واحدة من وصايا المسيح التي يحفظها المسلمون ، وكان أنكر ما استذكروه سماحهم بحلب النساء من بلادهم لمعاشرة الجند معاشرة الأزواج بغير زواج ، وكان أشد من ذلك نكراً لديهم أنهم يعظمون الصور والتماثيل تعظيم عباد الأصنام للطواغيت والأوثان ، فلم ينظروا إليهم نظرة الأعداء إلى الأذنين وحسب بل وقرت في أخلادهم سخافة ما يدعون من حق المطالبة بشيء قط باسم المسيح عليه السلام ، فهم في دعواهم مبطلون ، وهم غير أهل لتلك المطالبة لو كانوا صادقين .

مثل هذا الشعور قد يحيك بصدور الأمم في أوقات كثيرة فلا يضيرها بل يمدّها في قوتها إذا خامرها في إبان النمو والصعود ، ولكن الظروف التي تطورت إليها الحروب الصليبية لم تكن من هذه الأوقات ، بل صادفت على النقيض فترة ذات وجهين من قبل الشرق ومن قبل الغرب ، فكانت في الشرق فترة هبوط في النهضة العلمية وكانت في الغرب فترة صعود في النهضة العلمية الحديثة ، قامت بعدها أوربة مقام القيادة على هذه النهضة وتخلّف الشرق زمناً عن اللحاق بها ، وليس أخطر على الأمم من الاكتفاء بالذات والاعتزاز بالرجحان في أمثال هذه الظروف .

هبطت النهضة العلمية في الشرق بعد القرن الثاني عشر على أثر الغارات التي تعاورته في كل مكان ، وانصبت كوارث هذه الغارات خاصة على معاهد العلم والمكتبات فعصفت بالعشرات منها ما بين بخارى وسمرقند ومرو وبغداد ودمشق وحمص وسائر المدن التي اشتهرت بمعاهدها ومكتباتها في الزمن القديم ، ويحصى عدد الكتب التي احترقت خلال غارات التتر والمغول وغارات الصليبيين بمئات الألوف وعدد المعاهد والمكتبات بالعشرات والمئات ، وانصرف الأمراء وطلاب العلم عن العناية بالمدارس والمصنفات إلى التاهب والاستعداد لدفع المغيرين ممن كانوا يتوقعون غاراتهم واحدة تلو أخرى بغير انقطاع ، وكثرت مطالب الحكام من المحكومين اضطراراً في أول الأمر ثم اختياراً واعتسافاً مع تمادى الزمن حتى ساءت الصلة بين الحاكم ومحكوميه ، وتراخى الزمن على أثر الحروب الصليبية واستقرت الأحوال بعض الاستقرار فعادت البلاد

الإسلامية الوسطى شيئاً من رخائها على طريق التجارة الهندية ، ثم انقطع هذا الطريق واتجه الرواد إلى غيره من الطرق حول القارة الأفريقية ، فاجتمع سوء الحكم إلى سوء الحال وشاعت الشبهة عن حق وعن باطل بين الرعاة والرعية، وهذه هي الفترة التي كان ينبغى فيها للشرق الإسلامى أن يطلب المعرفة ويؤمن بضرورة العمل على التقدم أو يؤمن بمزايا العلم الحديث ، ولكنها كانت — بحكم هذه الظروف جميعاً — هي الفترة التي أعرض فيها الشرق عن كل حديث وعماء يأتى على الخصوص من قبل القارة الأفريقية ، فتأخر عن ركب الحضارة العصرية زهاء قرن كامل ، لو أنه استفاده ناهضاً ومجارياً للنهضة في مضمارها لما قصر عن اللحاق بالسابقين .

وجاءت المدارس العصرية من جانبين كلاهما مظنة للتهمة وكلاهما موضع للحذر والاعتناء .

جاءت المدارس العصرية على أيدي الحكومات التي بلغ التنافر بينها وبين المحكومين حد العداوة والافتراء بغير بحث ولا روية ، فكان الناس يحسبون التلاميذ المطلوب للدراسة كالعامل المطلوب للسخرة أو كالجندي الذي يساق إلى المشقة والوبال في غير مصلحة أو كرامة .

وجاءت المدارس العصرية أيضاً على أيدي رسالات التبشير التي صارحت الناس في ظل الامتيازات الأجنبية بغرضها من فتح المدارس وقبول التلاميذ بغير أجر في كثير من البلدان ، فأحجم المسلمون عن تعليم أبنائهم في مدارسها وجاوزوا ذلك إلى سوء الظن بالعلم نفسه وسوء الظن بنية المعلمين وإيمان المتعلمين .

وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الاولى فنذر فيهم من كان يتعلم
النافع منها كالفقه واللغة والادب والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين
العلوم العصرية فنظر الكثيرون منهم إلى علوم الجغرافيا والطبيعة
والكيمياء كأنها الكفر البواح أو السحر المزييف ، واتصل ما بينهم
وبين الخرافة والجهالة بهذا الانقطاع بينهم وبين العلم الصحيح قديمه
وحديثه ، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا
الخلاص من غير بابيه وتوسلوا للعمل فيه بغير أسبابه ، واتهموا
الناصحين وأسلموا مقادتهم للمدجلين والمحتالين .

في هذه الفترة كان الإسلام كما يفهم الجهلاء — والجهلاء هم
الاكثرون في سائر الامم — مزيجاً من الخرافة والشعوذة ومن
الطلاسم والاهام ، ومن الوثنية وعبادة الموتي .

في هذه الفترة كان بعض المتعلمين من أدعياء المعرفة يحكم بكفر
القائلين بدوران الكرة الارضية ولا يتردد في تكفير من يسميها
بالكرة . . .

وفي هذه الفترة كان طلاب الفتوى من مشارق الارض ومغاربها
يسألون عن الكبريت هل يحوز مسه ؟ وهل يحوز قدح النار منه ؟
وطبخ الطعام على تلك النار ؟ أو يأثم من يمس « صنفرة » لأنها من
مادة نجسة تنقض الطهارة ! .

وفي هذه الفترة كان السائلون يسألون عن صناديق التوفير
والادخار وعن معاملات التجارة من طريق المصارف والشركات ،
ويحسبون أن اللياذ بالاضرحة والتوايت وترتيل الاوراد والعزائم
يغنيهم عن السعي والتدبير وعن الجهاد والاجتهاد .

وفي هذه الفترة على الإجمال كان المسلم يعيش في العالم كمن يمشى في خرابة مظلمة ، لا يدري من أين تسرى إليه عقاربها وحياتها ومتى تخرج عليه أشباحها وشياطينها . وانقلب معنى الإسلام إلى معنى المخافة والاثام ، إذ كان أول معاني الإسلام أنه طمأ نية إلى الخالق وخلقه ، وكان هذا الإسلام الذي صار إليه المسلمون مخافة لا سلم فيها ولا سلامة ، واثاماً لا تسليم فيه ولا مسالمة .

قلنا أن الإفراط في الثقة بالنفس والاكتفاء بها كان فيما بعد الحروب الصليبية مضارعاً للإفراط في سوء الظن بالأعداء وتوهم الاستغناء عنهم والريبة بكل ما يأتي من قبلهم ، وقلنا إنه اكتفاء بالذات وخيم المغيبة في أمثال هذه الأحوال .

ونقول على الدوام إنه ما من شر يخلو من بعض الخير وما من ضرر مطلق إن كان معنى الضرر المطلق أنه لا يقبل الترياق أو لا يحتويه في كثير من الأحيان .

هذه الفترة من الثقة العمياء لم تخل من فائدتها في المقاومة والأمل في التبديل وفي عدل الله بين عباده ، ولم تسكد تبلغ أقصى مداها من الأضرار حتى جاءت بعدها نكبة الاستعمار بنقيض العبرة من دروس الحروب الصليبية ، لأنها شككت المسلمين في كفايتهم واستغنائهم وشككتهم في رجحانهم وغلبتهم ، وقام بين المسلمين من يقول لهم إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإن الغربيين نجحوا وتقدموا لأنهم أخذوا بالوصايا والأحكام التي كان المسلمون أولى بها لو عقلوا وصايا الدين وأحكامه .

« عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

« فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

نعم . وفي اصطدام الشرق الإسلامي مرتين بالقارة الاوربية مصداق لهذه الآيات البينات .

إنه سلم من الحروب الصليبية فاكتمى وقنع وغفل عما يحتاج إليه ، وانهمزم في وجه الاستعمار فعرف حاجته وتيقظ لنقصه ، واستقام على النهج الذي لا غنى له عن الاستقامة عليه ، وعادت به البأساء إلى « العقيدة الشاملة » التي ميزته بين عقائد الأديان ، فهو في مده اليوم عند منتصف القرن العشرين ، فإن لم يبلغ من مده اليوم ما يرجوه لقد ترك تلك المرحلة التي انتهت فيها إلى جزره في أوائل القرن التاسع عشر ، وما في ذلك من خلاف .

الاسلام والمسلمون في القرن التاسع عشر

٢ - المسلمون

بدأ القرن التاسع عشر وفي العالم من المسلمين نحو ثلثمائة مليون ،
وانتهى وعددهم حوالى أربعمائة مليون موزعين بين آسيا وأفريقية ،
وقليل منهم فى أوربة لا يزيدون على خمسة عشر مليوناً بين البلقان
والقرم وألبانيا واليونان وقبرص ورودرس وبلاد البشناق وبولونيا
وشواطىء بحر البلطيق فى لتوانيا وفنلندا وما جاورها .

ويؤخذ من الإحصاءات الأخيرة أن عدد المسلمين فى دولتى
الهند يقارب تسعين مليوناً ، وأنهم يملكون فى جزر السوند الكبرى
وجزر السوند الصغرى وجزر الملوك التى تدخل فى دولة أندونيسية
نيفاً وسبعين مليوناً ، ويختلف المقدرون لعددهم فى الصين من خمسة
ملايين إلى مائة مليون ، فتقويم جوثا يقدرهم بثلاثين مليوناً وجمال
نورى بك صاحب كتاب اتحاد المسلمين يقدرهم فى داخل الحدود
الصينية وفى منشورية وأنام وسيام والهند الصينية وفى الجزر التابعة
لإنجلترا من أرخبيل ملقا بنحو ستين مليوناً ، أما إحصاءات بعثات
التبشير فهى تقدرهم تارة بثلاثة ملايين وتارة أخرى بخمسة ملايين
فى داخل حدود الصين ، ويرتفع الرحالة عبد الرشيد إبراهيم بعددهم
إلى مائة مليون ، ويقول هانوتو أحد وزراء الخارجية السابقين
بفرنسا أنه « قد انبعثت شعبة منه فى الصين فانشرت فيها انتشاراً

هائلا حتى ذهب بعضهم إلى القول بأن العشرين مليوناً من المسلمين
الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء
لله مقام الدعاء لساكياموني . . . » .

ويعقب السيد توفيق البكري على هذا في رسالته عن مستقبل
الإسلام فيقول إن تاجراً بلوجياً جاء القاهرة في هذه الأيام وكان قد
ذهب إلى الصين مراراً « يؤكد القول بأن مسلمي الصين يبلغون
ثمانين مليوناً وأن علماءهم يهزأون بقول الأوربيين إنهم أربعون
مليوناً » .

وقد تلقت الصحف الأوربية برقية من الجماعة الإسلامية في
الصين أرسلتها أثناء حرب الصين واليابان تقول فيها إنها تتكلم بلسان
خمسين مليوناً من المسلمين .

فلا مبالغة — مع ملاحظة هذه الإحصاءات جميعاً — في تقدير
مسلمي الصين اليوم بنحو ستين مليوناً ، يضاف إليهم ثلاثون مليوناً
في التركستان وبخارى والقفجاق وغيرها من ولايات روسيا
الآسيوية ، ويضاف إليهم خمسة عشر مليوناً في إيران وبلاد الأفغان ،
وثلاثون مليوناً في بلاد العرب والعراق والشام وفلسطين وشرق
الأردن وآسيا الصغرى ، وبضعة ملايين في الجزر التابعة لـانجلترا
والولايات المتحدة ، فلا يقل عدد المسلمين الآسيويين عن ثلثائة
مليون ، وإن قل فهو بين مائتين وخمسين وثلثائة من الملايين .

أما في إفريقيا فالتقدير المعتدل لهم يقارب مائة مليون ، منهم
خمسة وعشرون مليوناً في مصر والسودان ، وعشرون مليوناً في

طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وعشرون مليوناً في الصحراء الغربية والسودان الفرنسي وبحيرة تشاد والشواطئ الغربية ونحو عشرة ملايين في زنجبار ومدغشقر والسواحل الشرقية والصومال ، وسائرهم بين الحبشة وأوغندا وكينيا وأفريقية الجنوبية .

فليس من المبالغة أن يقدر عدد المسلمين في العالم بأربعمائة مليون أكثرهم في آسيا وإفريقية ، وأقلهم في أوربة عدا ألوفا معدودة في العالم الجديد .

فهم جميعاً بحكم موقعهم من أبناء العالم القديم ، يقابلهم سكان أوربة الغربيون الذين نشأت بينهم الحضارة العصرية ، ويصدق عليهم وصف واحد في المقابلة بينهم وبين الأوروبيين المحدثين ، فلا يقال عنهم إنهم تقهقروا منتكسين إلى الزمن القديم وإنما يقال عنهم إنهم وقفوا حيث تقدم غيرهم مع العلم الحديث ، ولا ينسى المنصف في هذه المقابلة أن الأوروبيين الذين تقدموا هم الأوروبيون الذين اتصلوا بالإسلام من قريب ، وهم أبناء أوربة الغربية ثم أبناء أوربة الذين احتكوا بالإسلام في الحروب الصليبية . ولا نغني أن أسباب التقدم تنحصر في هذه الصلة أو في هذا الاحتكاك ، ولكننا نغني أن الإسلام لم يكن قط قوة مهمة في حركة من الحركات الإنسانية سواء نشأت بين ظهرانیه أو نشأت في مواطن أخرى ، وإن المؤرخ المحقق لن يستقصى أسباباً للنهضات الإنسانية على اختلافها دون أن يرجع بمرحلة منها إلى نهاية أو إلى بداية في عالم الإسلام .

وفي هذا السياق ينبغي الالتفات إلى أمر واقع قلما يلتفت إليه المؤرخون من الغربيين أو الشرقيين ، وهو أن محاربة الإسلام كانت

على الدوام نكبة على محاربيه من المستعمرين ، فإن السابقيين إلى الشرق من المستعمرين الأوربيين هم البرتغاليون والأسبان ، ولكنهم لم يثبتوا في الشرق طويلاً لأنهم ذهبوا إليه بسمعة العداء للإسلام ، وكان الأسبان يسمون المسلمين في جزر الهند بالموور متابعة لما عهدوه من تسمية المسلمين بالمراكشيين ، وكان البرتغاليون أول من نزل بجزائر السوند الكبرى وجزائر السوند الصغرى وما بينهما من الجزائر التي يكثر فيها المسلمون ، فلما تنافس البرتغاليون والأسبان وغيرهم من أبناء أوربة الغربية وأمريكا دارت الدائرة على الأولين لأنهم وجدوا العداء من المسلمين حيث نزلوا بينهم ، وهكذا كان نصيب روسيا في آسيا الشمالية حيث اشتهرت بعداوة الخلافة الإسلامية ، فقد كان موقف المسلمين منها في التركستان ومنشوريا والصين الشمالية الغربية عقبة من أقوى العقبات التي رصدت لها في ذلك الطريق .

هذه القوة التي لم تسقط يوماً من حساب السياسة العالمية لن تسقط اليوم من هذا الحساب ، وقد توضع السياسات الظاهرة والخفية لحربها وإقصائها من الميدان ولكنها تغلب على هذه السياسات حين تنقلب الأمور على غير إرادة الساسة والمقدرين ، لأن العقيدة الدينية أثبتت من برامج السياسة وخططها الظاهرة والخفية ، بل هي أثبتت من الجغرافية وما يسمونه حديثاً بالسياسة الجغرافية ، لأن العقيدة الدينية تحول السكان حيث تثبت معالم الأرض ورواسي الجبال .

ونحن نستطرد هذا الاستطراد في مقدمة الكلام على المسلمين في

القرن التاسع عشر لأنه يعيد إلى الأذهان أخطاء المقدرين وأصحاب السياسات قبل مئات السنين ، ويجعل هذه الأذهان على استعداد لا انتظار أخطاء أخرى من هذا القبيل قد ينكشف عنها الزمن بعد آن قريب .

انقسم العالم في بداية القرن التاسع عشر إلى حضارة حديثة في الغرب ، وحضارات قديمة في الأقطار الآسيوية والإفريقية ، وكان المسلمون — إلا القليل منهم — في هذه الأقطار .

تخلفوا عن ركب الحضارة في الصناعات والمخترعات والعلوم الحديثة ، وأصابهم هذا التخلف في مرافقهم جميعاً ومنها الزراعة والتجارة التي كان قوامها الأكبر على الملاحة الشراعية . فتراجعت شيئاً فشيئاً أمام ملاحاة البخار ، وتراجعت كذلك عن سيادة البحار .

ولما تقدمت مرافق الصناعة والتجارة في الغرب تقدمت معها وسائل التنظيم والإدارة ، وبقي الشرقيون جميعاً ، والمسلمون منهم ، متخلفين في هذه الوسائل إلى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل .

وأصبح العالم الإسلامي في مقدمة الأهداف التي تصوبت إليها حملات الغرب الثلاث وهي حملات التبشير والاستغلال والإستعمار ، ويتقدم التبشير هذه الحملات في ترتيب الزمن لا في الخطر والأثر... فإنه قد بدأ مع الحروب الصليبية حوالى القرن الثانى عشر ، وكان فى كثير من الأقطار رائد الحملة الاستغلال وحملة الإستعمار .

أما العالم الإسلامى من وجهة النظر إلى مركزه السياسى فتمد كان

معظمه عند أوائل القرن التاسع عشر في حوزة الدول الأجنبية ، ولم يبق فيه من الدول التي كانت على نصيب من الاستقلال في عرف السياسة غير دول ثلاث ، وهى الدولة العثمانية التي سميت بدولة الخلافة من عهد السلطان سليم ، والدولة الإيرانية والدولة الشريفيية بالمغرب الأقصى .

ولم تكن هذه الدول على شيء من الاستقلال في غير الظاهر ، لأنها لم تكن تملك من حقوق التصرف في سياستها الداخلية أو الخارجية ما تملكه الدول المستقلة ، وأكبرها وأقواها — وهى الدولة العثمانية — كانت عرضة للتدخل الدائم من قبل الدول الكبرى في كل شأن من شئونها ، إذ كانت هى محور المسألة الشرقية التي تلخص في عبارة واحدة وهى تقسيم بلاد الشرق « أولا » بين روسيا وفرنسا وإنجلترا ، ثم تلحق بهذه الدول كل دولة أثبتت لها وجوداً في ميدان الاستعمار أو في ميدان السياسة العالمية على الإجمال ، كالنمسا وبروسيا وإيطاليا وأسبانيا .

١ — الدولة العثمانية :

وكانت المسألة الشرقية قائمة على محور الدولة العثمانية ، ولكن الدول التي تعنها هذه المسألة لم تكن على اتفاق في طريقة التنفيذ ، ولم تكن على اتفاق كذلك في العجلة أو الأناة . ولم تكن على اتفاق بينها في نصيب كل منها من تركة « الرجل المريض » كما سميت الدولة العثمانية في ذلك الحين .

فروسيا كانت تتعجل التقسيم لتحل القسطنطينية ومضايق

البسفور والدردنيل ، وفرنسا كانت تنوسط بين العجلة والأناة لأنها كانت تكتفي بلبنان وسورية وبيت المقدس ولا تحرص على تقويض الدولة العثمانية من رأسها ، وانجلترا كانت تطمح إلى طريق الهند ولا تأبى عند الضرورة أن تساعد فرنسا لتستعين بها على صد روسيا والحيولة بينها وبين بلاد البحر الأبيض ، وحاولت كل منها أن تتخذ لها صفة الرعاية لجميع المسيحيين بالديار الشرقية ... وكانت روسيا وفرنسا قد حصلتا على اعتراف من السلطان العثماني بهذه الصفة أولاها لرعاية الكنيسة الإغريقية والأخرى لرعاية الكنيسة اللاتينية فحاولت انجلترا في أواخر القرن التاسع عشر أن تضيف إلى ألقاب التاج لقب الحارس للديانة المسيحية ، ولكن المسيحيين أنفسهم في الشرق الأدنى لم يعترفوا لها بهذه الصفة لأن أتباع الكنيسة الإنجيلية كانوا يومئذ جد قليل بين الشرقيين .

ولم تجد هذه الدول صعوبة في إقلاق الدولة العثمانية ، لأنها كانت تستخدم سلاح الامتيازات الأجنبية حين تشاء وكيفها تشاء ، وكان القرن التاسع عشر عصر الحركات الوطنية في بلاد المغرب والشرق ، فلم يكن من العسير على الدول أن تجد المطاوعين لها في ثورتها على الحكم التركي سواء من المسيحيين وغير المسيحيين ، ومنهم مسلمون يطلبون الاستقلال أو ينتمون على الإدارة التركية ... ولكن الأمر الجدير بالنظر أن السياسة الجهنمية لم تتورع عن خلق المذابح في المكان المطلوب وفي الآونة المطلوبة ، فحدث مذابح أرمنية ومذابح لبنان ومذابح الإسكندرية على هذا التقدير كلما كانت لازمة لتنفيذ إحدى الخطط التي ترسم قبل ذلك بسنوات أو شهور ، وكانت هذه المذابح

هى التى تدعو إلى التدخل من جانب الدول الكبرى . أما المذابح
فى روسيا أو فى البلقان فلم يعرض لها أحد بمجرد الاحتجاج فضلاً
عن التدخل أو التهديد بالاحتلال .

واصطلحت علل الضعف والجمود والخلل جميعاً على الدولة
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فانهزمت جيوشها فى ميادين
لم تتعود فيها غير النصر العاجل قبل هذه الفترة ، ولما أرادت أن
تدرب جيوشها على النظام الحديث تمردت فرق « الينى شارى »
التي كانت هى نفسها تجديداً على النظم الحديثة فى حينها كما يدل
عليه اسمها ، فقمعتها وكادت أن تستأصلها بالقليل الذى دربه على
الأساليب العصرية ، قبل أن يتم لديها من الجيوش العصرية ما يفتنيها
فى حروبها المتتابعة . وكانت قد استكثرت من عقد القروض لسداد
نفقات هذه الحروب وإشباع نهمة السلاطين والأمراء الذين أفسدهم
الضعف والاستبداد فانغمسوا فى الترف والبدخ وكلفوا بلادهم
مالاً تطيق من الضرائب والإتاوات ، وأفضى سوء السياسة المالية
إلى إعلان الإفلاس والعجز عن أداء فوائد الديون (فى سنة ١٨٧٤)
فى مواعيدها ، واعتمد ساسة الباب العالى فى مقاومة الدول صواحب
الديون وصواحب الامتيازات على المضاربة بينها ومنح الامتيازات
الاقتصادية تارة لهذه وتارة لغيرها ، وقد كانت الدولة البروسية تبرز
شيئاً فشيئاً إلى ميدان السياسة العالمية ولا سيما بعد حرب السبعين
التي انتصرت فيها على فرنسا ، فاتخذ منها ساسة الباب العالى ذريعة
للتخويف والتهديد ، ورحبوا بالاتفاق معها على إصلاح المواصلات
الداخلية فنهجوها (فى سنة ١٨٨٨) امتيازاً بمد الخط الحديدي

إلى أنقرة بعد امتداده في البحر إلى القسطنطينية ، وأتبعوا هذا الامتياز بامتياز آخر لمد الخط إلى قونية على أن تخترق السكة آسيا الصغرى إلى الشام وبغداد ، ولم تقف الدولة الإنجليزية مكتوفة اليدين أمام هذا الخطر الذي يقترب من الهند ولكنها اضطرت إلى التراجع والسكوت حين لحت من بروسيا بواذر الاتفاق عليها مع فرنسا على هذا الجانب من جوانب المسألة الشرقية وعلى التدخل في القضية المصرية لمطالباتها بالجلء عن مصر تحقيقاً لوعدها .

ومن خطوط المواصلات الهامة التي تمت في بلاد الدولة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهايته قناة السويس (سنة ١٨٦٩) وسكة حديد الحجاز (من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩٠٨) وهي السكة التي تجاوزت بأخبارها دوائر الاستعمار على أنها تعبئة من تعبئات الجامعة الإسلامية .

وإلى هذه الآونة كانت كل دولة ذات أثر في المسألة الشرقية قد انتزعت لها قطعة من بلاد تركيا في أوربة أو آسيا أو إفريقية ، ما عدا بروسيا التي سيطرت في هذه الآونة على الأقاليم الألمانية بجمعها ، فاغتنتم عاهلها « ولهم الثاني » هذه الفرصة للتقرب من تركيا ومن العالم الإسلامي بأسره ، وزار الآستانة وبيت المقدس ونادى في بعض خطبه بصداقة دولته للثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين بين بقاع المشرق ، ونظر سياسة الترك إلى دولة أوربية يعتمدون عليها في تنظيم جيشهم فلم يطمئنوا بطبيعة الحال إلى روسيا ولم يجدوا عندها الكفاية الفنية لهذه المهمة ، ولم يطمئنوا إلى إنجلترا لأن وزيرها جلادستون أعلن غير مرة وجوب « طرد الترك » بقضيتهم وقضيتهم

من كل بقعة في أوربة ، فرحبوا بالمساعدة الألمانية على تنظيم الجيش
وتدعيم الأسطول على حذر ، ولم يكن عبد الحميد داهية بنى عثمان
لينسى مؤتمر برلين ومراعى الألمان فى الوقت المعلوم نحو المشرق ،
ولم تغب عنه الدعوة العسكرية والثقافية التى نجحت بين الألمان
المعاصرين واتخذت صيحتها (إلى الشرق) شعاراً تردده وتعلق عليه
الآمال فى توسيع ملك الجرمان واستيلائهم على طريقهم من برلين
إلى آسيا الصغرى إلى أواسط آسيا ، ولم يخف عليه ما وراء حملة
العاهل الجرمانى على الآسيويين وتحذير الغرب من يقطعتهم وتأليبهم
الأوربيين على الشرق كله باسم الحذر من الخطر الأصفر ، فتوخى
فى سياسته على الدوام أن يحنح إلى كل دولة من دول الاستعمار بمقدار
وترك بعده ساسةً تربوا فى مدرسته (حتى من أقطاب تركية الفتاة)
ينهجون نهجه فى مسلكهم بين تلك الدول ، فكان الكثيرون منهم
يميلون إلى الحيدة عند اشتباك الحرب العالمية الأولى . وليس بالصحيح
أن ساسة الترك كانوا مجمعين يومئذ على دخول الحرب إلى جانب
دولتى المحور ، ولكن الصحيح أن دول أوربة الغربية استشارت
الترك إلى محاربتها لتضمن بذلك معاونة الروس إلى النهاية طامعاً
فى القسطنطينية ، وتضمن معاونة المتربصين بالرجل المريض من دول
البحر الأبيض المتوسط وسائر الدول الطامحة إلى الشرق الأدنى ،
وقد يفيد فى بيان الأعاجيب من خفايا سياسة الاستعمار أن نسمى هنا
- على غير تأييد ولا تفهيد - إلى ما قيل عن دسائس المستعمرين
التي أحكموا تدبيرها للتعجيل بالثورة الروسية بعد سقوط
آل رومانوف ، فلعلهم لم يجدوا لهم مخلصاً أوفق من هذا التحليل
من الاتفاق مع آل رومانوف على دخول القسطنطينية .

كان على عرش إيران في مفتتح القرن التاسع عشر شاه من أسرة قاجار - اسمه فتح علي شاه - تولى الملك بعد عمه أغا محمد الذي اشتهر بصرامته وقسوته في إخضاع ثوار السكرج وخراسان . وقد سمى فتح علي باسم رأس الأسرة ولكنه لم يكن على نصيب من خلائق المؤسسين والفاستحين غير الطمع وحب الفخفخة ، فاعتر بمظاهر التعظيم التي أحاطه بها رسل الدول الأجنبية وراقه أن يرى بلاطه قبلة للسفراء والوفود من ملوك الغرب فاستسلم لهذا الغرور وتحالف مع بريطانيا العظمى على الأفغان لاسترجاع أقاليم فارس الشرقية ، وأملى له في مجارة السياسة البريطانية أن روسيا انتزعت من فارس بلاد السكرج تلبية لطلب أميرها جورج الثاني عشر ، فاستقبل الشاه مندوب شركة الهند الشرقية سير جون ملكولم وعقد معه محالفة سياسية تجارية تعهد فيها الشركة بإمداد فارس بالسلاح والمال في حالة الاعتداء عليه من جانب الأفغان أو فرنسا ، ويتعهد فيها الشاه ألا يعقد صلحاً مع الأفغان ما لم تنزل هذه عن مطالبها في الهند ، وقد تمكن الشاه من صد الغارة الروسية على «أروان» في سنة ١٨٠٤ بمعاونة الضباط الإنجليز وضغط السياسة الإنجليزية . ثم أبرم في أواخر سنة ١٨١٤ - بعد نكبة نابليون - محالفة عامة تتعهد فيها فارس بإلغاء جميع الاتفاقات مع الدول المعادية لإنجلترا وتتعهد فيها إنجلترا بنقدها مائة وخمسين ألف جنيه وتبادل المعونة في حالة الدفاع . ولم تمض على هذه المعاهدة بضع سنوات حتى التحمت فارس

وتركية في الحرب التي انتهت لصالح أرضروم ، ثم حاربت روسيا على أثر احتلال هذه لبعض الأقاليم المتنازع عليها فانهمزمت وتخلت عن أروان وتبريز (١٨٢٧) وخذلتها إنجلترا في هذه الحرب فاستدارت بسياستها إلى مجارة روسيا... وأخرجت البعثة العسكرية الانجليزية التي قدمت إليها لتدريب جيشها على النظم الحديثة وهاجمت « هرات » ثم تفاهمت مع حكام الهند على فك الحصار عنها ، وفي سنة ١٨٥٦ شمرت إنجلترا الحرب على فارس — إذ عادت إلى مهاجمة هرات واستولت عليها — فاحتل الانجليز بوشير والمحمرة وتراجع الجيش الإيراني عن أرض الأفغان ثم تم الاتفاق على الحدود الأفغانية الإيرانية .

وفي سنة ١٨٦٤ أنشئ أول خط تلغرافي بين بغداد وطهران وبوشير على اعتباره « توصيلة » للخطوط الهندية ، وافتتح خط أوديسة وتفليس وطهران بعد ذلك ببعض سنوات .

واستمر السباق بين إنجلترا وروسيا على كسب الامتيازات والرخص من الحكومة الإيرانية ، فلما حصل البارون دي روتر على امتياز باستغلال بعض الموارد الإيرانية وارتهان المكوس الجمركية أسرع الروس إلى إحباط هذا الامتياز وحصلوا على الإذن بإنشاء فرقة القوزاق وإلحاقها بجيش إيران . ثم احتلوا مدينة « مرو » واستولوا على بلاد التركمان ، (سنة ١٨٨٤) وتجددت مساعي الماليين الإنجليز ففازوا امتيازاً بافتتاح نهر قارون للملاحة ، ومنح البارون دي روتر هذه المرة امتيازاً بإنشاء المصرف الإمبراطوري مع

الترخيص له باستغلال المناجم في إيران ما عدا مناجم الذهب والفضة
(سنة ١٨٨٩) .

وبعد هذا الامتياز بسنة واحدة حصلت إحدى الشركات على
امتياز الدخان المشهور الذي تصدى جمال الدين الأفغانى لإحباطه ،
ثم تمادى الشاه (ناصر الدين) فى الاقتراض وبذل الرخص ورهن
الموارد ، ومنها قرض انجليزى فى مقابلة رهن المكوس الجمركية
بالخليج الفارسى ، فتمكن جمال الدين من إثارة القوم عليه وإغرائهم
بعضيانه واغتياله على البعد والقرب فقتل فى سنة ١٨٩٦ وقيل إن
قاتله صاح به وهو يضربه (خذها من جمال الدين) .

وجلس ابنه مظفر الدين على العرش فأصبحت إيران فى عهده
نهباً مقسماً بين النفوذيين ومساعى المستغلين من الجانبين ، فتقدم بنك
الخصم الفارسى — وهو فرع من وزارة المالية الروسية — بإقراض
الحكومة نيفاً وعشرين مليون روبية فى مقابلة مكوس الجمارك بجميع
أنحاء البلاد ما عدا خليج فارس ، واشترط على الحكومة أن تصفى
القرض الإنجليزى ولا تتقبل قروضاً أخرى مدى عشر سنوات (فى
سنة ١٩٠٠) .

واحتاج الشاه إلى قرض آخر بعد سنتين فأمدته به الحكومة
الروسية فى مقابلة الترخيص لها بمد السكة الحديد من جلفة إلى تبريز
فطهران ، وأوشك الاتفاق أن يتم على مد الخط إلى شواطئ الخليج
لولا المقاومة الشديدة من جانب الإنجليز ، تعززها مساعى المالىين
على يد (دارسى) من زيلاندة الجديدة لإغناء خزائنه إيران عن
معونة الروس ، فانعقد الاتفاق بين دارسى D'arcy وحكومة إيران

على الترخيص له باستخراج النفط من منابعه التي كشفت بعد ذلك بمسجد سليمان ، وحصّة الحكومة من الأرباح ست عشرة في المائة علماً برسوم الامتياز وحصّة بقيمتها من أسهم الشركة .

ولما كثرت المطالب والرهون على مكوس الجمارك وضعت الإدارة كلها في عهدّة نوس البلجيكي وكادت الدولة أن تشهر إفلاسها ، وتفاقم سخط الشعب فثار على الشاه وعلى وزيره عين الدولة المسؤول عن سياسة القروض والرخص والرهون ، ولأذ الثوار بمبنى السفارة البريطانية (يوليّه سنة ١٩٠٦) فأسرع الشاه إلى عزل عين الدولة والمناداة بالدستور ، وكظمه الغيظ فمات بعد افتتاح مجلس النواب بأسابيع (ديسمبر سنة ١٩٠٦) .

أما الدولتان المتنافستان على أسلاب فارس فإنهما قابلتا إعلان الدستور بالاتفاق الودي المشهور باتفاق سنة ١٩٠٧ . فاعترفت روسيا بمصالح إنجلترا في الخليج الفارسي واعتبرت الجزء الجنوبي الشرقي في المملكة « دائرة نفوذ بريطانية » وسلّمت إنجلترا باعتبار الجزء الشمالي منها دائرة نفوذ روسية ، وتركنا بين الدائرتين بقعة مفتوحة لسكتا الدولتين ، وختمتا الاتفاق بتوكيد الحرص على استقلال البلاد وسيادتها !

ولم تمض على هذا الاتفاق سنة واحدة حتى كان الشاه الجديد « محمد علي » العوبة في أيدي الروس لأنه آثر الخضوع للدولة الأجنبية على الخضوع لأحكام الدستور . فأغلق المجلس واعتقل أعضائه وأنصاره ، وأعلن الحكم العرفي وأمعن في المظاهرين تقيلاً وتشريداً

واستعان بالجيش الروسى على قمع الثوار فى تبريز ، وكانت قوتهم فيها
غالبة على قوة الشاه .

ثم اغتصمت انجلترا الفرصة فعملت على إنشاء الشركة الإنجليزية
الفارسية لاستغلال امتياز دارسى باستخراج النفط فى جزيرة عبدان ،
واشتد غليان الشعور الوطنى فهجم الزعيم البختيارى على قوى خان
على طهران وخلع الشاه ، ثم ظهرت السياسة الأمريكية فى الميدان
فقدم إلى طهران مستر مورجان شستر Shuster - بطلب من المجلس -
لتنظيم الإدارة المالية وافتتح عمله بإنشاء فرقة عسكرية فى خدمة
الخزانة ، وتطمين انجلترا بدعوة ضابط بريطانى لقيادة تلك الفرقة ،
فأطاعت روسيا الشاه من مأواه وأرسلته إلى « استراباد » وأغارت
على الشمال منذرة المجلس بالتقدم إلى الجنوب إن لم يبادر إلى طرد
شستر ومروسيه ، فرفض المجلس إنذارها وأصر على استبقائه ، وظهرت
فجأة فى طهران جماعة من الرؤساء ذوى النفوذ بين القبائل فأغلقوا
المجلس وقبضوا على أزمة الحكومة ومن ورائهم قوة الدولة الروسية ،
وظلت فارس فى قبضة الروس إلى ما بعد إعلان الحرب العالمية الأولى .

٣ - مراکش

كانت مراکش فى بداية عصر الاستعمار أول هدف للمستعمرين
لأنها كانت على أقرب نظرة من دول الاستعمار فى أوربة الغربية ،
وكانت فى الزاوية المقابلة لأوربة الغربية تشرف على البحر الأبيض
وعلى المحيط الأطلسى فكانت فى هذا الموقع مطمح الأنظار
أمام فرنسا وأسبانيا وانجلترا ، ولكن فرنسا لم تتقدم إليها لأنها

كانت مشغولة بحروبها في القارة وكانت تعلم أن إنجلترا لا تطيق دولة كبيرة على العدو المقاتلة لجبل طارق ، وأسبانيا وصلت إلى أوائل القرن التاسع عشر وهي تلهث من الإعياء وتكاد بعد تنازع طلاب الملك فيها أن تصبح في عداد المستعمرات الخاضعة لغيرها . أما إنجلترا فكان جبل طارق يغنيها في ذلك الموقع عن العدو الإفريقية وكان همها أن تبقى مراکش في يد أبنائها وفي حوزة حكومة لا تقوى على منازعتها ، وكانت وجهتها الأولى أن تحتل البحر الأبيض من شرقه عند مجاز التجارة الهندية فلم تشأ أن تحسب عليها مراکش بدلا كبيرا في سوق المساومات الاستعمارية ، واتفق بعد ظهور ألمانيا في ميدان الاستعمار وانتصارها على فرنسا أن المسألة بحذافيرها طرحت على مائدة المؤتمرات الدولية فتفاهمت فرنسا وإنجلترا على التعاون المشترك في قضيتي مراکش ومصر واستقر الرأي على تقسيم مراکش بين فرنسا وأسبانيا والمنطقة الدوالية .

وقد بدأ القرن التاسع عشر ومراكش على شيء من القوة بالقياس إلى بلاد إفريقية الشمالية ، فتصدى زعمائها لمقاومة الفرنسيين بالجزائر بعد أن سكت الدولة العثمانية بمركز الفرنسيين فيها وزحف الجيش المراكشي إلى تلمسان مستثيراً قبائل العرب والبربر في طريقه واستطاع « أبو معزى » المراكشي أن يقتحم الجزائر بعد احتلالها بخمس سنوات ولم يتمكن القائد الفرنسي من مقاومته إلا بنجدة قوية جاءت من فرنسا ، ولكن سلطان مراكش لم ينقطع عن مناوشة فرنسا بعد هزيمة أبي معزى وأسرته إلى أن تلاقي الجيش المحتل وجيش السلطان في سنة ١٨٤٤ فميت جيوش السلطان بهزيمة منكرة

اضطربت لها جوانب المغرب ونهبتها من غفلتها فنهضت لإصلاح الجيش وتشمير المرافق الوطنية ، ووافق ذلك قيام السلطان « مولاي الحسن » بالملك — وهو من أقدر سلاطين المغرب — فأحسن التصرف في مواجهة الدول المستعمرة والاستفادة من تنافسها وتنازعها ، وأدخل الأساليب العصرية على دواوين الحكومة ومعامل الصناعة ومدارس التعليم وأكثر من إيفاد البعثات إلى جامعات الغرب لتخريج الخبراء في الشؤون الفنية والعسكرية . ومن فضائح الاستعمار أن الدول الموقعة على معاهدة مدريد احتجت عليه حين اتصل بالآستانة لمثل هذا الغرض واعتبرت ذلك منه اشتراكاً في حركة دينية معادية لا تنظر إليها بعين الارتياح والاطمئنان ، واستنكرت تجديد العلاقة بين حكومة الآستانة وحكومة طنجة والتمهيد لتبادل السفارات بينهما لأنه يغير الوضع السياسي الذي اتفقت تلك الدول على أن تلاحظ فيه بقاء الحالة الراهنة .

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت دول الاستعمار في موقف يسمح لها بالتفاهم على هذه القضية العسيرة . فبريطانيا تحسب حساب اليقظة الوطنية في مصر فتجنح إلى مسالمة فرنسا ، وفرنسا تسترضي إيطاليا وتعدّها بالإغضاء عن مطامعها في ليبيا ، والنمسا تطمع في بلاد البشناق من تراث الدولة العثمانية ، وألمانيا تعلم أن الحرب العالمية دون وصولها إلى مقسام في المغرب الأقصى لمعارضة إنجلترا وفرنسا وترضى بنصيبها في السكونغو وبلاد التوجو من القارة الإفريقية .

وفي هذه الأثناء توفي السلطان الحسن وخلفه السلطان عبد العزيز والمغرب الأقصى في أشد مأزقه وأحوجها إلى الحزم والحكمة ، فعبث

في مقام الجد وسوا سمعته في العالم الإسلامي فضلاً عن العالم الأوربي بما كان يشتغل به - أو يتلهى به على الأصح - من سفساف الأمور ، وأرسل إلى مصر وغيرها في طلب المغنين والراقصات وأطمع الدول في العدوان على بلاده بهزله وغرارته ، فالتحق مؤتمر الجزيرة (سنة ١٩٠٦) في أسوأ الظروف بالنسبة إلى المغرب وشهده مندوبون من قبل السلطان وافقوا على ما تقرر فيه باتفاق الدول التي اشتركت فيه وعادتها بوضع عشرة دولة ، وكانت قرارات المؤتمر في ظاهرها مؤيدة لاستقلال مراکش وسيادتها ولكنها ناطت بفرنسا مهمة الحراسة وتنظيم إدارة الشرطة ، فكان هذا الاعتراف بالاستقلال والسيادة من قبيل اعتراف إنجلترا وروسيا باستقلال إيران ذوداً للدول الأخرى عنها وانفراداً بالنفوذ فيها ، ومعنى الحراسة الفرنسية مع هذا الاستقلال هو إطلاق يد فرنسا شيئاً فشيئاً في البلاد وتحريم التعرض لها على غيرها .

وشبت الثورة الوطنية على أثر مؤتمر الجزيرة لعجز السلطان واسترساله في لهوه وإسراعه إلى إقرار الوضع الجديد في بلاده ، فبويح السلطان عبد الحفيظ بعده وتعهده قبل مبايعته بمقاومة السيطرة الأجنبية وإعلان الاحتجاج على قرارات مؤتمر الجزيرة ، فتعلل الفرنسيون بهذه المقاومة للعهود الدولية وأغاروا على العاصمة وأعلنوا الحماية ، فكان إعلانها في تلك الآونة (١٩١٢) أول خطوة من الخطوات الخبيثة التي دفعت بالعالم إلى الحرب العالمية الأولى ، ثم انطلقت يد فرنسا بعدها في شمال إفريقية بغير معارضة من الدول المنهزمة التي كانت تحول بينها وبين التبسط في مطامع الاستعمار .

أهم غير مستقلة

وهكذا تطورت الحوادث بالدول الإسلامية المستقلة خلال القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين .

أما الأمم التي كانت في حكم غيرها خلال هذا القرن فشأنها في حاضر الإسلام ومستقبله لا يقل عن شأن الدول المستقلة ، سواء بكثرة عددها ومواقع بلادها ومكانتها من عالم الحضارة ، وأكثر المسلمين عدداً على هذا الترتيب هم مسلمو الهند ومسلمو الجزر الشرقية (أندونيسية) ومسلمو الصين .

١ - الهند

في أوائل القرن التاسع عشر ثبت حكم الإنجليز في الهند وخيل إلى الأكثرين أنه قد صار فيها معلماً من معالم الإقليم كالجبال والأنهار... وتندر المتندرون بموعد خروجهم منها فرددوا تلك الكلمات المشهورة عن المواعد التي تضرب لوقوع المستحيل ، ومنها أنهم يخرجون في الثلاثين من شهر فبراير ، أو يخرجون حين يلتقي أحدان ، أو حين يلتقي المشرق والمغرب ، . . . وهيئات يلتقيان .

وإذا كان ثمة أحد في الهند كان يش من بخروج الإنجليز منها لا محالة فهم مسلموها ، لأنهم على يقين بوعدها كتبهم أنهم هم الأعزة إذا استقاموا من أمورهم ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقد شعر المستعمرون بصعوبة مراس هذه الأمة ودخلوا الهند والدولة التي تقودها في أيدي المسلمين فخاربوهم وعملوا على إضعافهم وصرح أحدهم لورد ألنبرو Ellenborough بعداوتهم فقال : « ليس في وسعي أن أغضض عيني عن اليقين بأن هذا العنصر الإسلامي عدو أصيل للعداوة لنا وأن سياستنا الخطة ينبغي أن تتجه إلى تقريب الهنديين » وجهر لورد إلفينستون Elphinstone في سنة ١٨٥٨ بوجود التفرقة بين المسلمين والهنديين في إدارة البلاد ، وهي الخطة التي نادى بها كاتب المجلة الآسيوية قبل ذلك بنيف و ثلاثين سنة .

« وكان المسلمون في إبان دولتهم قانعين من الحياة العامة بالوظيفة الحكومية وذادهم عن الاشتغال بالصيرفة أنهم يحرمون الربا ، وعن ملك الأرض أن الأرض لم تكن مملوكة لأحد ولكنها كانت متروكة للزراع والجبابة الذين يؤدون للحكومة حصتها من الضرائب ، وكان أكثر هؤلاء الجبابة من البرهميين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها ، فلما أصدر الإنجليز قانوناً لتسوية مسائل الأرض الزراعية جعلوا هؤلاء الجبابة ملاكا وجعلوا الزراع أجراء في أرضهم واعتمدوا على هذا النظام زمناً لتحصيل الضرائب ومحاسبة الجبابة عليها ، فاجتمع الحرمان من الوظائف والحرمان من الأرض على إقامة العزلة بين المسلمين وغيرهم في الحياة الاجتماعية » (١) .

ثم زاد المسلمين ضعفاً أنهم حرموا وسائل التعليم الحديث لأن المدارس الحديثة كانت في أيدي المبشرين ، وأن البراهمة بالغوا في

(١) كتاب « القائد الاعظم » للمؤلف .

عزلة الطوائف والطبقات بعد انتشار الإسلام بين صفوفهم ، وشرح ذلك أحدهم الأستاذ لونييا مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية هواسكار فقال : « إن المسلمين أول قوم أغاروا على الهند ولم تستوعبهم حياة القارة الهندية المرة التي لا تني وتمتد وتنطوي على المخيرين ، وقد أغار قبلهم كثيرون كالإغريق والسيثيين والمغول والمجوس وغيرهم وانطوا إلى الغمار بعد أجيبال قليلة انطواء تاماً بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وأزيائهم وآرائهم ، وفنيت جموعهم في الواقع خلال المجتمعات الهندية إلا المسلمين . فإنهم لم يزالوا في الهند طائفة منفصلة ، ورفضت نياتهم المتشددة في الوحدةانية كل هوادة في قبول الشرك والأرباب المتعددة ، ومن ثم عاش المسلمون والبرهمنيون في أرض واحدة دون أن يمتزجوا ولم تفلح محاولة من المحاولات في وضع القنطرة على الفجوة ، وما برح المسلمون خلال القرون التالية يولون وجوههم شطر الكعبة بمكة وينفردون بشريعتهم ونظام إدارتهم ولغتهم وأديهم وأضرحتهم وأوليائهم » .

وشهد المؤلف بفضل المسلمين في تعليم أهل الهند مبادئ المساواة ولكنه قرن هذه الشهادة بقوله : إن إحدى النتائج التي نجمت من حكم المسلمين في الهند أن المجتمع قد انقسم في عهدهم قسمة رأسية وكان قبل القرن الثالث عشر ينقسم ولكن قسمة غير رأسية ، ولم تستطع البوذية ولا الجينية أن تحدثا مثل هذا الانقسام لأنهما ما عتمتا أن اندمجتا في المجموع بسهولة وسرعة ، على حين أن الإسلام قد شق المجتمع من الأسفل إلى الأعلى شطرين متقابلين : براهمة ومسلمين . قنشا في أرض واحدة مجتمعان متوازنان متغايران في جميع طبقاتهما

قل أن تصل بينهما علاقة في المعيشة أو معايشة ، واشتدت محافظة البرهمنين أمام غيرة الإسلام في نشر دعوتهم الدينية فاندفعوا مع خوفهم وحرصهم على حماية مجتمعهم والمبالغة في قيود الطبقات والطوائف وما إليها من القيود الاجتماعية .

وهذه القيود الاجتماعية تشمل الطعام والشراب والأعراس والمآتم بما فيها من مباحات عند قوم محرمات عند آخرين .

وازدادت هذه العزلة بعد شيوع المقاومة الوطنية بين الهنديين ، لأن زعيمها الأكبر طيلاق بنى دعوته صراحة على تخليص الهند من الغرباء وإلغاء اللغة الأردية وإبطال القوانين التي تحترم شعائر المسلمين ، ونظر إلى المسلمين نظره إلى الإنجليز ، ثم نهجت على سنته جماعة الغلاة الذين جهروا بضرورة القضاء على كل أثر للإسلام في الهند وندبوا أحدهم لقتل غاندى لأنه كان يوصى بغير هذه الخطوة في معاملة المسلمين .

إن الأستاذ لو نيا الذى اقتبسنا ما تقدم من كلامه لم يعلل نجاح الإسلام حيث أخفقت البوذية والجينية ، ولو أنه علل هذا النجاح بعلمته الصحيحة لأظهر الخطأ البين فى قول القائمين أن الإسلام قد شاع بين المنبوذين لأنه خولهم حقوق المساواة بينهم وبين سائر الطبقات . فإن البوذية كانت خليقة أن تنجح مثل هذا النجاح لو كان مرجعه إلى معاملة المنبوذين ، وإنما يتجلى هنا سر نجاح الإسلام الذى أجملنا بيانه فيما تقدم من هذه الرسالة، وهو شمول العقيدة الإسلامية وعلاجها النفس الإنسانية من داء الفصام الذى يقلقها ولا يريحها إلا باعتزال

الدنيا وحل المشكلات بتجاهلها والخروج منها ، فهذا الشمول هو مصدر القوة الغالبة والقوة الصامدة في المسلمين ، وهو هو البقية التي بقيت لهم في الهند بعد زوال الدولة وزوال المناصب الكبرى والوظائف الصغرى والحرمان من ثروة الأرض والمال ومن زاد العلم الحديث والخبرة العملية والعزلة أمام الحكومة المسيطرة وأمام الكثرة التي تربي على ثلاثة أضعاف ... ومن أعماق هذه العقيدة الشاملة نجمت لهم عدة الخلاص حين لم يبق للهندي المسلم من عدة غير أنه مسلم وكفى ، وتحركت بينهم أقدر دعوة للإصلاح برعاية السيد أحمد خان ، ويرجع مبدؤها إلى إنشاء جماعته العلمية في عليجرة (سنة ١٨٦١) ثم إنشاء صحيفته « تهذيب الأخلاق » وكلية عليجرة بعد رحلته إلى إنجلترا (سنة ١٨٧٠) .

وتشعبت حركات الدعوة الإسلامية في الهند خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر على حسب اتساع الأقاليم والمشارب فظهر فيها من اتخذ من ابتداء القرن الرابع عشر للهجرة حجة للظهور بدعوة الإصلاح ثم دعوة المهديّة على قول من قال إنه يظهر على رأس كل مائة سنة داع يحدد شباب الدين ، ومن هؤلاء غلام أحمد خان القادياني الذي نشر في أوائل القرن الهجري كتابه « براهين الأحمدية » ثم ادعى أنه المسيح المنتظر بعد بضع سنوات ثم ادعى (سنة ١٩٠٤) أنه أقنوم كرشنا وأقنوم الروح الإلهي كله ، فاتبعه في أول الأمر طائفة من المصدقين ، ثم انقسم أتباعه فريقين : فريق يدّعي نبوته وفريق يحسبه من المصلحين ويرفض ما يروى عنه من دعوى النبوة والحلول . وقد أحيط ظهور القادياني بالشبهات لأنه اتقى من تشجيع

الحكام البريطان ما لم يكن مألوفاً منهم في معاملة أمثاله ، ثم جاءت فتواه بقبول الحكم الأجنبي وتفسير أمر الجهاد على هوى الحكومة مرجحة عند الأكثرين لتلك الشبهات ، وإنما استحق الخلاف عليه أن يقوى لأن هذه الفتوى حملت على تحمل التقية ، وهى مقبولة في اعتقاد بعض الفرق من الشيعة منذ لقي الدعاة إلى أهل البيت ما لقوا من عسف الأمويين والعباسيين .

على أن الهند — مع بعدها في المشرق — كانت تتجاوب بكل صدق قريب أو بعيد من الدعوات الإسلامية في بلاد العرب ، فسرعان ما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بحزيرة العرب حتى تردد صداها في البنغال (سنة ١٨٠٤) واتبعتها طائفة الفرائضية بنصوصها الحرفية . فاعتبرت الهند دار حرب إلى أن تدين بحكم الشريعة ، ثم تردد صدق الدعوة الوهابية بعد ذلك بزعامة السيد أحمد الباريلي في البنجاب وأوجب على أتباعه حمل السلاح لمحاربة السيخيين ، وتقدمهم في القتال حتى قتل (سنة ١٨٣١) ونهض من بعده تلميذه كرامة على فاقصل بطريقة الفرائضية وأقضى بأن البلاد الإسلامية يجب فيها صلاة الجمعة ولا تحسب من ديار الحرب وإن كان الحكم فيها لغير المسلمين .

وترامت إلى الهند أنباء الدعوة المهدية في السودان وبخاصة بعد وقعة « هكس » المشهورة وانهزام القائد الإنجليزي فيها ، فقد حذر الإنجليز مغبة هذه الدعوة ونشروا في أرجاء الهند مئات الألوف من فتاوى العلماء المنكرين لها ، وذهب بعض ساستهم إلى الزعيم المصري « أحمد عرابي » في منفاه بسيلان يسألونه عن مهدى السودان

فيكان جوابه لهم من جنس السؤال .: وقال لهم إن المهدي في الإسلام هو كل من هداه الله .

وقد تطلعت الهند إلى دعوة جمال الدين الأفغاني كما تطلعت إلى الدعوات التي سبقتها ، وصح فيها أنها كانت لاتساعها وتعدد بيئاتها أصلح الميادين لتجربة النافع والضار من حركات العاملين باسم الدين ، فثبت من تجاربها جميعاً أن أصلح الحركات وأدومها أثراً هي حركات التجديد التي تجارى العصر ولا تنقطع عن أصول الدين ، وأخفقت فيها حركات الجامدين المتشبهين بالحروف ، كما حبطت فيها حركات المبتدعين الذين انقطعوا عن الأصول وخرقوا في العقيدة خرقاً يخالف جوهر الإسلام .

ولقد بدأ القرن العشرون والمسلمون في الهند يتطلعون إلى دولة الخلافة ، ثم أسفرت الحرب العالمية الأولى عن شدة في الحركة الوطنية لم تكن معهودة من قبلها ، ثم بلغت هذه الشدة قصواها في أعقاب الحرب العالمية الثانية وتعاقبت التجارب التي يراد بها تسليم الوطنيين زمام الحكم حتى استقرت على التجربة الأخيرة بقيام دولتي الهند والباكستان .

٢ - أندونيسية

وإذا كانت الهند أوفى الميادين بتجارب الحركات الدينية فالجزر الأندونيسية أوفى الميادين بتجارب الاستعمار بأنواعه ومشتقاته ، لأنها كابدت ضروب الاستعمار التجارية والزراعية والثقافية والسياسية ، واختبرت أساليب البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والإنجليز

واليابانيين ، وعاصرت الإستعمار من أيامه الاولى في الشرق إلى أيامه
الاخيرة على النحو الذي صار إليه في القرن العشرين ، ولا نظن أن
خطة من خطط الإستعمار اتبعت في ناحية من أنحاء العالم لم يتبع
لها شبيهه في هذه الجزر التي تعد بالآلاف .

ولعل هذه الجزر أصلح مكان لتقرير الحقائق عن سر انتشار
الإسلام بين الأمم التي كانت تدين بغيره قبل وصوله إليها . ففي كل
موضع فيها تصحيح لاوهام من يزعمون أنه دين ينتشر بالسيف
ولا ينتشر بغيره ، وفي كل موضع دليل من الواقع على فعل القدوة
الحسنة في انتشاره بغير عنف بل بغير اجتهاد في الدعوة أكثر من
الاحيان ، وحيثما وجد التجار والرحالون من العرب على شواطئ
هذه الجزر فهناك مسلمون على المذهب الذي يأتمون به من مذاهب
الأئمة الاربعة ، وإذا كان الترك على الاغلب يأتمون بمذهب
أبي حنيفة وكانت للعشائر التركية دولة في الهند فالدولة لم تصل إلى
الجزر بسلاطنها وقوتها بل وصلت إليها بالمسافرين من تجارها
ومهاجريها ، ولهذا يوجد الحنفيون حيث وجد هؤلاء التجار
والمهاجرون ويوجد إلى جانبهم أتباع المذهب الشافعي الذين اقتدوا
بالعرب القادمين من بلادهم غرباء بغير دولة ولا صولة تكره الناس
على مذهبها في شؤون العقيدة ، وهي أعصى الشؤون على الإكراه . ومع
هؤلاء وهؤلاء يوجد الشيعة حيث لم توجد قط دولة ذات سلطان
تدين بمذهب من مذاهبها . ولم يزد عدد العرب في القرن التاسع عشر
على ثلاثين ألفاً في جميع جرد الارخبيل ، ولكن المسلمين يقاربون
سبعين مليوناً من أبناء البلاد الاصلاء وبعض الهنود .

وهذه البلاد من أغنى أقطار العالم بالمحصولات الزراعية ، ينمو فيها القصب والبن والشاي والأرز والبطاطس وتنبت فيها الأشجار التي تخرج الأصماغ المختلفة ومنها صمغ المطاط ، وأشهر محصولاتها الأباير والتوابل التي تهاقت عليها أوربة ومن أجلها حاول الرحالون في القرن الخامس عشر أن يصلوا إلى منابتها من المغرب ، فاندكشت لهم القارة الأوربية على غير انتظار ، وسميت جزرها بجزر الهند الغربية مقابلة لهذه الجزر التي كانت تعرف بإسم جزر الهند الشرقية .

لا جرم كانت قبلة المستعمرين الأول وصحبت الإستعمار من أول بحثاته إلى عهده الأخير .

وأبناء هذه البلاد يتكلمون لغة واحدة هي لغة الملايا ، وشيوع هذه اللغة بينهم مع شيوع الإسلام هو الذي وحدهم وعودهم الشعور بقومية واحدة ، على الرغم من الجهود التي بذلت للتفرقة بينهم بإحياء اللهجات الإقليمية وتشجيع « الأيجديات » التي تلائم كل لهجة منها ، ومن مفارقات الزمن أن الإستعمار قد زود هذه اللغة على غير قصد منه بالأبجدية اللاتينية التي رسمت لها كتابة واحدة لا يسهل تنويعها وتفريقها على حسب اللهجات في معاهد التعليم الحديث .

جاءها البرتغاليون عند ختام القرن الخامس عشر ، ولم يعرفها الهولنديون إلا بعد قرن كامل ، ثم تبعهم الإنجليز والفرنسيون ، وظفر الهولنديون بمعونة أبناء البلاد لأنهم جاءوهم بعد البرتغاليين فحالفهم الوطنيون للخلاص من هؤلاء وإقصائهم عن أسواق المشرق ، وتكاثرت شركات التجارة الهولندية تنافساً على الربح الغزير الذي

استأثرت به الشركة الأولى، فوحدت حكومة هولندية بين هذه الشركات وجمعتها إلى شركة واحدة هي شركة الهند الشرقية الهولندية ، وقد تعاقدت هذه الشركة في مطلع القرن السابع عشر مع مملكة بنتم على احتكار التجارة في موانئها وأسواقها وإعفاؤها من الضرائب وإمدادها بالجنود والعدة اللازمة لصدد الشركات الأوروبية الأخرى ، إذا أدى إغلاق الموانئ دون سفنها إلى الإعتداء على بلاد المملكة .

ولما وفد التجار الإنجليز على الجزر كان الهولنديون قد أسرفوا في مطالبهم فرحب القوم بالإنجليز وأعانوهم على الشركة الهولندية ، ولكن هذه لم تلبث أن عادت بقوة بحرية كبيرة وحاصرت الموانئ ومنعت خروج السفن منها ثم تغلبوا على جزيرة جاوة وافتحوا عهد استعمارهم بإنشاء مدرسة في العاصمة « جاكرتا » تتبعها كنيسة ، واغتنموا فرصة النزاع بين الأمراء فضربوا بعضهم ببعض وكادوا ينهزمون لولا المعونة الوطنية التي أسعفتهم مراراً في أشد أوقات الحاجة إليها .

إلا أن التنافس التجاري بين المستعمرين قد اضطر الشركة إلى التحول من التجارة إلى الزراعة ، واضطرها التنافس كذلك إلى الإكثار من بناء السفن الحربية والإستعداد بالأسلحة والذخائر ، ووقعت الحرب بين الدولتين الهولندية والإنجليزية فكسدت تجارة الشركة ولجأت إلى الإستدانة ونزلت على كره منها عن عقود الإحتكار التي اتفقت عليها من الوطنيين ، ثم احتلت فرنسا أرض هولندا في أثناء الحرب الفرنسية الإنجليزية فاستولى الإنجليز على مستعمرات هولندا جميعاً ، وآلت البلاد إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية حتى

أوائل القرن التاسع عشر ، فسعى بعض الأمراء والمصلحين إلى الحاكم الإنجليزي لإقناعه بتوحيد الإمارات الأندونيسية في شبه ولايات متحدة تتولاها هيئة نيابية ... فلم يقبل مجلس الشركة في لندن هذا الاقتراح واستعاض عنه بالإكثار من الحكومات المحلية وإلغاء قوانين السخرة وتخفيف بعض الضرائب واحتكار تجارة الملح لتعويض خزانة الشركة عن الضرائب الملغاة .

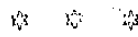
ولما عاد إلى هولندا استقلالها بعد انهزام نابليون أمام الجيش الإنجليزي الهولندي في وقعة « واترلو » طالبت بمستعمراتها المختلفة فردت لها... وأظهر القادة العسكريون المسيطرون على تلك المستعمرات عصبياً « متفقاً عليه » حتى تم الاتفاق بين الدولتين (سنة ١٨٢٤) على تسوية تحفظ لإنجلترا جزءاً من المستعمرات وتعيد سائرهما إلى الحكومة الهولندية .

وعادت الإدارة الهولندية إلى السخرة وزيادة الضرائب وحرمان البلاد من غلاتها ومحاصيلها فتعاقبت الثورات مع الجماعات والأزمات الاقتصادية ، وكاد السخط على الحكومة المستعمرة أن يعصف بها لولا استغلال الواقعة بين أمراء الممالك وتآليب صغارهم على كبارهم وانقياد صغارهم للسياسة الأجنبية خوفاً على سلطانهم المحدود من غلبة الأمراء الكبار عليهم . ولم تهدأ هذه القلاقل إلا في السنوات الأولى من القرن العشرين ، ثم أذعن هولندا كما أذعن غيرها من دول الاستعمار لمطالب النهضة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى ، فاستجابت الشعب الأندونيسي إلى بعض حقوق الحكومة الذاتية وقامت المجالس النيابية في هذه البلاد لأول مرة في ظل الاستعمار .

ويرجع فضل النهضة الوطنية إلى يقظة المسلمين وتأسيس أول جماعة من جماعات الإصلاح بإسم « شركة إسلام » وهى الجماعة التى انضوت إليها جماعات متعددة بعد ذلك بإسم « مسجوى » ... كلمة منحوتة من « مجلس سجورو مسلمين أندونيسية » .

Madjelis Sjiro Muslimin Indonesia

وأكثر القائمين بهذه الدعوة من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقراء تفسيره بمجلة المنار ، لأنهم استفادوا من تجارب الإصلاح السابقة على مقربة منهم فى الهند ، واتفق نشاطهم الإصلاح بعد توافر أسبابه فى إبان دعوة الأستاذ الإمام بالديار المصرية ، وهى دعوة تعول على تعزيز الجامعة الإسلامية من الوجهة الثقافية ولا تشتد فى طامها من الوجهة السياسية على طريقة جمال الدين ، وقد تمحصت التجارب خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر بعد حركة الجامعة الإسلامية الأولى وبعد حركة الخلافة فى الهند ، فأسفرت عن رجحان المنهج القويم الذى اختاره الأستاذ الإمام رحمه الله .



٣ - الصين

ومسلم الصين لهم تاريخ يتناقلونه عن السلف وتغلب عليه الصحة ، وإنما يرجع الخطأ فيه إلى تعديل التقويم الصينية من حين إلى حين ، بحيث تتسع فى بعض العصور لفرق عشرين أو ثلاثين سنة تزيد تارة وتنقص أخرى ، وعلى حسب التاريخ الذى يتناقلونه يكون الإسلام قد دخل إلى الصين بعد الهجرة النبوية بقليل . وقد هزم

المسلمون الفرس والروم معاً بعد الهجرة النبوية بحيل واحد فأرسل كلاهما إلى الصين يستغيثون بإبن السماء ويهولون له في خطب هذا العدو الظافر . . ظناً منهم أن هذا التهويل يحفزهم إلى المبادرة بإغاثتهم في الطريق حرصاً على حدود الصين ، فكان هذا العاهل أحذر مما حسبوه ، ودعته استغاثة الروم بعد استغاثة الفرس إلى مسالة هذه القوة الجديدة ، فأوفد رسله إلى الخليفة عثمان وقابل الخليفة هذا التقرب بمثله فأوفد إليه بعثة قوبلت بالحفاوة والترحاب .

وقبل أن يمضى قرن واحد على هذه الزيارات عرضت لبلاط الصين تلك المشكلة التي حيرت سفراء الغرب وقهارة البلاط في مملكة ابن السماء بعد أكثر من عشرة قرون ، حين اشترط ابن السماء على السفراء أن يتقدموا إليه راكبين وعز على هؤلاء السفراء أن يحميه بتحية أكبر من تحياتهم لماوكمهم . فإن العاهل سوان تسنج غره ما سمعه عن اضطراب أحوال الدولة الإسلامية فجرد على تخومها جيشاً كبيراً يريد أن يدحر به جيش قتيبة بن مسلم الرابض على تلك التخوم . فانهزم وأمر قتيبة الرسل الذين أنفذهم إلى بلاط ابن السماء أن يعرضوا عليه الإسلام أو الجزية أو مواصلة القتال . فدخل هؤلاء الرسل على ابن السماء لأول مرة مترفعين عن السجود منذرين متوعدين . ثم مات الخليفة الوليد وقتل قتيبة وأجزل العاهل عطاء الجيش الإسلامي وأذن لهم بالبقاء في بلاده ، فسموا بإسم القبيلة الصينية التي كانت إلى جوارهم ودانت بالإسلام مقتدية بهم ، وهي قبيلة هوى شوى ، ولا يزال المسلمون جميعاً يعرفون بإسم « هوى هوى » في جميع بلاد الصين . ويؤخذ من سجلات أسرة تانج أن الدولة كانت تمنح الأسر

الإسلامية المقيمة في « سيانغو » خمسمائة ألف أوقية من الفضة كل سنة ، وهو عطاء فرضته الدولة على نفسها مكافأة لهم على نجاتهم للعاهل « سوتسنج » الذي ثار به الجند بعد إكراه أبيه على النزول عن العرش ، فاستنجد بالخليفة العباسي أبي جعفر فأمدّه ببضعة آلاف جندي همموا الثوار وأقروه على عرشه فاستبقاهم في أرضه (سنة ٧٥٧) . . . ومن هؤلاء ومن سبقهم من جنود قتيبة تناسل المسلمون في غرب الصين .

إلا أن المسلمين قد دخلوا الصين من غير طريق الغرب ، ولم ينقطع تجارهم وسياحهم والملاحون منهم عن زيارة موانئ الجنوب في كاتون وما جاورها ، وأوغل بعضهم إلى داخل البلاد من الجنوب والغرب والشمال مع القبائل الرحل فلم يخل منهم إقليم في الأقطار الصينية على الإجمال ، ويسمى المسلمون في الشمال الغربي عند قانسوه وشنشي بالتنجان أي المنتقلين إلى الدين الجديد ، ويسمون في سنكيانج بالترك لأنهم من السلالات التركية في التركستان ، ويسمون في يونان بالبنشاي وهم من سلالة الترك والعرب وأهل الصين الأقدمين ، وليس هؤلاء جميعاً من سلالة المسلمين الأولين ، بل منهم أناس من أبناء الصين آثروا الإسلام إعجاباً بأهله ، ومنهم من كان آباؤهم يبيعونهم في أعوام المجاعة فينشأون بين المسلمين على عقيدتهم ، ولم يحل تحريم المسلمين أكل الخنزير وتعاطي الخمر والمخدرات دون اجتذاب جيرانهم إلى دينهم بالقسوة الحسنة والمعاملة المرضية والأمانة في التجارة والزراعة ، فأسلم كثيرون بغير إكراه على قلة اکتراث الصينيين بالتحول من دين إلى دين لأنهم لا يباليون ما يعتقدون إذا

تركت لهم عبادة الأسلاف ورعاية التقاليد في الشعائر وآداب السلوك .
وقد شقي المسلمون في الصين بحكم أسرة المانشو في القرنين الثامن
عشر والتاسع عشر ، وعلمت هذه الأسرة الواغلة تاريخ المسلمين في
نصرة الأسرة المخذولة فأشفقت من ثورتهم وتعللت لهم بالعلل التي
تصطبغ بصبغة الدين لتنفير البوذيين منهم ، فحرمت عليهم ذبح البقر
(سنة ١٧٣١) مع أنها تبيح ذبح الخنازير ، وظنت أنها ترضى بذلك
طوائف البوذيين وترضى سائر أهل الصين الذين يبيعون الخنزير
ويسرهم أن يضطر المسلمون إلى أكله بعد تحريم لحوم البقر
عليهم ، فثار المسلمون وتتابعت ثوراتهم وهزموا جنود الحكومة
في معارك كثيرة ومنها معركة في التركستان الصينية قتل فيها ألفان
وانتحر الوالي خوفاً من القصص (١٨٦٣) . وفي هذه الآونة
استقل البطل التنجاني يعقوب بك بحكم التركستان وأوشك أن
يتفصل بها وبالإقليم المجاور لها لو لا أنه مات فجأة (١٨٧٧) واختلف
أتباعه وقادة جنده فتلاحقت بعده المذابح والثورات ، إلى أن سقطت
دولة المانشو وكان لثورات المسلمين في الغرب والشمال أثر في
إسقاطها وتحريض الناقمين منها على مهاجمتها .

وقد أحس المستعمرون الشرقيون والغربيون وطأة الصينيين
المسلمين في حروب تلك الدول مع الصين ، وكانت اليابان أول من
تعرض لبأسهم في حربها مع الصين (سنة ١٨٧٥) فخطبت ودهم
وتقربت منهم جبهة وخفية ، ثم أوفدت سفراءها من أمراء البيت
المالك إلى دار الخلافة لتستميل إليها المسلمين الصينيين في خصوماتها
مع أسرة المانشو ومع الروس في وقت واحد ، وكانت أسرة المانشو

قد حرمت على المسلمين الإتصال بالعالم الخارج فتعذر عليهم أداء
فريضة الحج ولكنهم كانوا يتحيلون على الخروج لأداء هذه الفريضة
بمختلف الحيل ، فلما أحست بمساعي الدول بينهم وتسلسل الدعاة إليهم
من اليابان والروس والترك وحكومة الهند ضربت حولهم السدود
وحظرت العودة على من يغادر منهم البلاد للحج أو لطلب العلم ،
فنشأت بينهم عادة غريبة وهي عادة الحج بالنيابة ، وتوافد عليهم
فقراء المسلمين من الأمم القريبة لينوبوا عنهم في الحج بأسمائهم ،
خوفاً من النفي الدائم إذا غادروا البلاد بغير إذن الحكومة ، ولم تخل
القيود من أثرها المحمود . فإنها ضاعفت عنايتهم بدراسة الدين وحفظ
القرآن فكثر بينهم من يعرفون لغته ويقرأون بها قراءة المجتهد في
أرض معزولة عن الثقافة العربية ، وتعزى إلى هذه الفترة نهضة
التجديد بين مسلمي الصين الغربية ، وهي كسائر النهضات مقبولة
عند فريق ، مستنكرة أو مشتباه فيها بين فريق المحافظين على
كل قديم .

ولا يزال مسلمو الصين في غمرة من جرائم الظلم الذي حاق
بهم على عهد الأسرة المنشورية ، ولم يرتفع عنهم كثيراً بعد قيام
الجمهورية ، ولكنهم على أية حال كانوا في مطلع القرن العشرين قوة
لا تهمل في حساب أحد يعنيه أمر الصين كلها ، ولهذا جعلتهم
الجمهورية عنصراً من العناصر الخمسة التي يقوم عليها النظام الجديد .

اسم اخرى

تلك في العالم الإسلامي أكبر الجماعات التي بقيت إلى ختام القرن التاسع عشر في حكم غيرها ، وهي جماعات كبيرة حتى بالقياس إلى أكبر الجماعات من حولها ، إذ ليست الصين مثلاً على عقيدة واحدة بملايينها الأربعمئة ، ففيها الطاويون والبوذيون وأتباع كفشيسوس وطوائف شتى لا تقيم شعائرها في بيعة واحدة ، وقد تواترت الأدلة على الرغبة في الإقلال من عدد المسلمين بين هؤلاء في جميع الإحصاءات الحكومية وغير الحكومية ، ولم تتبدل هذه الرغبة بعد إعلان الجمهورية ، فقال دكتور ليمان هوفر معتمداً على مراجع الحكومة العامة أن عددهم يتراوح بين سبعة ملايين وعشرة ، وكشف الأستاذ أحمد علي الباكستاني عن خطأ هذا الإحصاء معتمداً على عدة مراجع منها دليل الصين الرسمي في سنة ١٩٤٣ ، فإن تعداد سنكيانج وحدها في ذلك الدليل ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ و٣٦٠.٠٠٠.٠٠٠ وتعداد قانسو ٦٧.٤٠٠.٠٠٠ و٢٥٥.٠٠٠.٠٠٠ وتعداد شنشي ١٧.٦١٧.٠٠٠ و٩٧٩.٠٠٠.٠٠٠ وكلها بلاد إسلامية أكثر من فيها مسلمون ، وهذا عدا مسلمي يونان وشنغهاي وتنغسيه وهم هناك قلة كبيرة ، وعدا المسلمين بوادي اليانجتسي وقد ذكر ولز وليامس إحصاءهم في كتابه الذي ظهر قبل خمسين سنة (١٨٨٣) فقد رهم بناء على ذلك الإحصاء بعشرة ملايين ،

ولا حاجة إلى شواهد أخرى أو إلى استقصاء سائر الأقاليم لإثبات تلك الرغبة في الإقلال من عدد المسلمين الصينيين ، فقد يرى بعضهم أن الجماعة الإسلامية التي كان ولاية الأسر الصينيون يودون الإكبار من شأنها لم تذكر كل الحقيقة حين كتبت - بإذن ولاية الأمور - أنها تمثل خمسين مليوناً من الصينيين

ووفرة العدد هنا لها شأنها الخطير في قارة كالقارة الآسيوية يتقدم اعتبار العدد فيها اليوم على كل اعتبار .

وهناك شأن آخر لا بد من الالتفات إليه في كل كلام يتعلق بالجغرافية الإسلامية ، فلا يخفى أن البلاد الإسلامية تبتعد عن شواطئ البحار بتدبير أو بغير تدبير ، وذلك مصدر ضعف لها في بعض المواقع ومصدر قوة لها في المواقع الأخرى ، فالمسلمون في وسط آسيا قوة لأنهم هناك ميزان القارة الداخلية لا يتم أمر من الأمور في سياسة العالم التي ترتبط بتلك المواقع إن لم يحسب فيه حسابهم قبل كل حساب ، ولكنهم في الجزر الهندية الشرقية يملكون الشواطئ فلا يهمل شأنهم في كل سياسة عالمية لها علاقة بحرية ، وهم في باكستان شرقاً وغرباً يتوسطون البر والبحر ، فلا تنفصل سياسة القارة الآسيوية بعد النظر إلى هذه الاعتبارات كافة عن سياسة الإسلام .

وتعاصر هذه الجماعات الإسلامية الآسيوية أمم شتى لا تساويها في العدد ولكنها ملحوظة المسكنة والمكان لغير ذلك من الاعتبارات ، وفي طليعتها وادي النيل والبلاد العربية .

ولاوى النيل

فوادى النيل قضى القرن التاسع عشر كله — اسماً ورسماً — فى حوزة الدولة العثمانية ، ولسكنه كان قبل قيام الدولة العثمانية وبعد انحسار ملكها محور العالم الإسلامى ، بلجثة أسباب تدور على الدين تارة وعلى السياسة أو الثقافة تارة أخرى .

فقد كانت القاهرة تحسب عاصمة الإسلام ، وكان ماوك الإفرنج يخاطبون سلطانها باسم أمير لإسلام إذا انتحل أحدهم لنفسه لقب الأماره على المسيحيين ، وكانت مصر طليحة الجيوش الإسلامية فى مقاومة الصليبيين وبيت القدس تابع لها فى أيام تلك الحروب ، ومضى زمن على العالم الإسلامى فى القرون الوسطى وهو لا يعرف قبلة لعلوم الدين أولى بالرحلة إليها من الجامع الأزهر ، وعظمت مكاتبا أمام الغرب بعد الحروب الصليبية فى عهد الاستعمار وفى عهد المسألة الشرقية ، فكان الفيلسوف الألماني « ليدنر » يجرى لويس الرابع عشر بفتح مصر للقضاء على المستعمرات الهولندية ويقول له إن هولندية لا تجسر حينئذ على معاداته لأنها تجر عليها غضب العالم المسيحى إذا حاربتة وهو مشغول بفتح معقل الإسلام ، ولما فكرت الدول فى أمر قنسة السويس كان المركز دار جنسون Dargenson يروج للمشروع من الناحية الدينية فيقول إنه فتح صليبي لجميع المسيحيين .

وشاءت الحوادث ، كما شاء حكم الموقع ، أن تسبق مصر بلاد

العالم الإسلامي إلى الحضارة الحديثة ، لأنها تنهت إلى مزايا هذه النهضة عند وصول الحملة الفرنسية إليها بقيادة نابليون بونابرت قبيل ابتداء القرن التاسع عشر ، وكانت في حقيقتها حملتين : حملة عسكرية وحملة علمية يشترك فيها جلة العلماء من المختصين الثقات في كل علم حديث . ويعتبر القرن التاسع عشر في مصر بمثابة الأزمة النفسية التي تصاحب سن الرشد في بواكير الشباب ، فاعتلجت فيها النفس المصرية بتجارب النكسة والتقدم وعوامل الأسر والحرية ، واستهلكت أمة مصر سنواته الأولى بحركة من حركات الاستقلال تمثلت في إجماع القادة على عزل الوالي العثماني وترشيح وال يختارونه ليخلدنه على شرطهم من الاستقامة في الحكم والتعفف عن الحرمات والأموال ، فتولى الأمر « محمد علي » ولجأ إلى النظم الحديثة في إدارة الدولة وتثمين الأرض والانتفاع بماء النيل ، ولولا إسرافه في العدة لتوسيع ملكه لأدركت البلاد أضعاف ما أدركته من المنفعة والتقدم بعد القضاء على عصاة الهالك .

وقد استفادت مصر في هذا القرن من الحضارة الأوروبية وأوشكت أن تنهل لها فوائد لها بقاء الامتيازات الأجنبية وأثقال الديون وشطط الولاة وعجزهم من أيام عباس الأول إلى أيام توفيق ابن اسماعيل ، وفي عهد هذا تفاقمت بوعث السخط والنقمة فنارت الأمة تطلب الإصلاح وتعالج أن تفك قيودها بتقييد سلطان الولاة ، فتدركت بريطانيا العظمى باختلال الأمن في مصر لضرب الإسكندرية واحتلال القطر كله ، ولم تنس أن تثير العصبية والطمع في الغرب بدعوى حماية المسيحيين وحراسة حقوق أصحاب الديون ، ولم يحدث قط أن مسألة الديون سوغت احتلال شبر من الأرض في أوربة أو أن اضطهاد المخالفين في الدين ضيع استقلال أمة من غير الشرقيين .

وكان القرن التاسع عشر كما أسلفنا بمثابة الأزمة النفسية التي
تصاحب سن الرشد في بواكير الشباب ، فحدثت فيه تكة الاحتلال
الأجنبي وحدثت فيه قبل الاحتلال وبعده نهضة الحرية في وجه
الدولة صاحبة السيادة وهي الدولة العثمانية ، وفي وجه حكام مصر وهم
سلالة محمد علي ، وفي وجه السيطرة الفعلية وهي سيطرة المستعمرين ،
ويحسن بالمؤرخ الذي يعنيه الاستقصاء في النهضة الفكرية على
الخصوص أن يقرر في ثقة ويقين أن العصية العمياء لم تكن قط عاملاً
فعالاً في حوادث مصر الهامة . فقد كان شعور مصر إسلامياً كما
أحس العصية من الغرب في عدائه للأمم الإسلامية . ولكن الهتاف
بالسخط على « العثماني » كان على لسان الخاصة والعامة ، يدل عليه أن
جماهير العامة كانت تنادي في أواخر أيام المماليك مستنجدة بالمتولى
لهلاك العثماني ، وكان هتافها الذي لا يعقل أن يصدر من غير العامة
« يا متولى يا متولى . تخرب بيت العثماني » ... وبعضهم يتعلم ويتخرج
فيسبديل المتجلى بالمتولى ، وهو وما جرى مجراه مسطور في تواريخ
مصر بأقلام المصريين والأجانب ، وأقلام المسلمين وغير المسلمين .
أما الخاصة فمنهم الحزب السياسي الذي نادى « بمصر للمصريين »
قبل نهاية القرن التاسع عشر بعشرين سنة ، وعلى رأسهم الأستاذ
الإمام الشيخ محمد عبده أستاذ رجال الدين من المصلحين ، وأحد
أصدقائه وتلاميذه سعد زغلول قائد الثورة بعد الحرب العالمية الأولى
وكان وكيلاً للهيئة النيابية التي تألفت في أوائل القرن العشرين باسم
« الجمعية التشريعية » وأثبتت أن الجماعات النيابية تنال منزلتها ومقدرتها
على قيادة الأمم بفضل من فيها من الأعضاء لا بمقدار مالها من الحقوق
في النصوص والأحكام .

البلاد العربية

ومن تاريخ الإصلاح الإسلامى فى جزيرة العرب يبدو أن الإصلاح فى العالم الإسلامى ^{يخلق} حيث توافرت دواعيه على حسب البيئة ، فهو سابق فى المجتمعات التى تدور فيها المعيشة على بساطة البداوة وما شابهها ، وهو كذلك سابق فى المجتمعات الحضرية التى تشعبت جوانبها وتركبت عناصرها فلا يصلح لها ما يصلح للبداوة . وكل ما هنالك أن الإصلاح فيها يتأخر به الزمن لأنه يستلزم من الدواعى العلمية والاجتماعية ما لم يكن لازماً فى البيئات البدوية .

فالنهضة فى مصر بدأت عند أوائل القرن التاسع . عشر ولكنها بدأت فى الجزيرة العربية قبل ذلك بنحو ستين سنة بالدعوة الوهابية التى تنسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبدأت نحو هذا الوقت فى اليمن بدعوة الإمام الشوكانى صاحب كتاب « نيل الأوطار » ، وكلاهما ينادى بالإصلاح على نهج واحد: وهو العود إلى السنن القديم ورفض البدع والمستحدثات فى غير هوادة ، وإنما تسامع الناس بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وظلت الدعوة الشوكانية مقصورة على قراءة كتب الفقه والحديث لأن الوهابيين هدموا القباب والأضرحة فى الحجاز واصطدموا بجنود الدولة العثمانية فى إبان حربها مع الدول الأوروبية التى اتفقت على تقسيمها ، ومثل هذا الاصطدام

قد أودى بدولة على بك الكبير في مصر فانتقض عليه أعوانه وتمكن منه حساده بعد محالفته لروسيا في حرب الخلافة الإسلامية .

ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثاً في الجزيرة العربية ولا في أرجاء العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه ، فقد تبعه كثير من الحجاج وزوار الحجاز وسرت تعاليمه إلى الهند والعراق والسودان وغيرها من الأقطار النائية ، وأعجب المسلمين أن سمعوا أن علة الهزائم التي تعاقبت عليهم إنما هي في ترك الدين لا في الدين نفسه ، وأنهم خلقاء أن يستجدوا ما فاتهم من القوة والمنعة باجتناب البدع والعودة إلى دين السلف الصالح في جوهره ولبابه .

أما سياسة الاستعمار فلم يفتها في هذه المرحلة أن تستغل التمرد على الدولة العثمانية كما تستغل التنازع بين أمراء الجزيرة في داخلها وعلى شواطئها ، فسارعت بريطانيا العظمى إلى التعاقد مع أمراء الشواطئ على نوع من الحماية الخفية ، وأحكمت عقودها هذه بعد فتح قناة السويس ومد السكك الحديدية إلى العراق ، فلم ينقض القرن التاسع عشر حتى كانت قد أحاطت الجزيرة العربية بحلقات من هذه الإمارات التي تخضع لها وتعمل لها في السر ما لا تستطيعه في العلانية .

الهلال الخصيب

والهلال الخصيب وسط بين مصر والجزيرة العربية في نهضة الإصلاح الديني ومجاعة الحضارة الحديثة ، فالمسلمون في بلاد الهلال الخصيب يشعرون بالحاجة إلى التغيير ولكنهم لا يلتمسونه في بساطة القديم ولا تتوافر لهم الوسائل لا لتمامه في العلوم الحديثة ، وتقيدت أحوالهم بأحوال الدولة التركية فتعلم منهم من تعلم في المدارس التركية وقدم بعضهم إلى الجامع الأزهر بمصر أو تلقى العلم على مناجه من علماء بلده .

ولما تسابقت الدول الغربية إلى فتح المدارس في لبنان وسورية لم يقبل عليها المسلمون لاعتقادهم أن التعليم فيها وسيلة للتبشير ، وهو أمر لا يخفيه رؤساء تلك المدارس بعد انقضاء جيلين على افتتاحها ، ومنهم رئيس جامعة كبيرة يقول إن التعليم خير الوسائل في التبشير والتنصير .

ومن خدام الإستعمار طائفة تمهد له بخدمة اللغة العربية تشجيعاً لثورة العرب على دولة الخلافة ، واحتيالا على نفث بعض المغامر في طيات السكتب التي تنشرها ، وإن خدام اللغة هؤلاء لشاهد من شواهد شتى على أن العلم لا يخلو من الخير وإن ساءت النية عند ناشريه .
وجملة الحال في بلاد الهلال الخصيب عند أواخر القرن التاسع عشر

أنها تتقدم في نهضة إسلامية تتوسط بين منهج محمد بن عبد الوهاب ومنهج محمد عبده ، وأن هذه النهضة يمتزج فيها طلب الحرية وطلب التجديد كأنها جيش ذو جناحين يذهب الجناح السياسي منهما بعيداً ويصطنع الجناح الديني شيئاً من الأناة والمحافظة .

وفي داخل هذا الهلال الخصيب فرق من المسلمين كالمناولة والدروز يحسبون من غلاة الشيعة ويذهبون إلى أقوال في مسألة الحلول ومسألة الإمامة يخالفهم فيها السنيون والشيعة المعتدلون ... وتكاد كل فرقة منهما أن تنطوي على عزلتها، إلا أفراداً منهم يقصدون إلى معاهد العلم الحديث في لبنان ومصر والديار الأوربية .

أفريقية الشمالية

أما في أفريقية الشمالية فقد احتلت فرنسا الجزائر في سنة ١٨٣٠ واحتلت تونس في سنة ١٨٨١ وسلكت في كل منهما السياسة التي تبصر من لا يبصر بأساليب الاستعمار سواء منه ما ينتحل المبادئ الديمقراطية أو ينتحل الدعوة الدينية .

فنايليون الثالث قد منح المسلمين في الجزائر حقوقاً كحقوق المواطنين ، وهو عاهل مطلق الدين . . . ثم جاء غمبتا داعية الحرية فحرم المسلمين هذه الحقوق وضاعفها لليهود .

وحكومة فرنسا وهي تنادي باعترافها للدين تضع في « الميزانية » التي عجزت مواردها عن مصروفاتها باباً واسعاً لمعونة المبشرين في أفريقية الشمالية ، ويعلن وزيرها في البرلمان أن « السياسة اللادينية » تقف عند حدود فرنسا ولا تتخطاها إلى المستعمرات .

وقد ابتدأ القرن العشرون في الجزائر وتونس بنهضة من نهضات التقدم يستعجلها المجددون ويستعملها المحافظون ، ولم يبق من المحافظين في نهاية القرن التاسع عشر من يحرم الدستور لأنه بدعة مستمدة من الشرائع الغربية ، ولكن أنصار القديم مع هذا يتخرجون مما يتوسع فيه أنصار التجديد .

وتم احتلال المستعمرين لأفريقية الشمالية باحتلال طرابلس في

سنة ١٩١١ فكانت الغنيمة هذه المرة من نصيب الإيطاليين ، وسمعت
في إيطاليا قبيل الزحف على طرابلس أناشيد « الصليبية » في نغم
جديد ، ولكنها سمعت أيضاً بعد ذلك بزهاء ثلاثين سنة تمجيداً
لغزوة الحبشة وابتهاجاً بتخليص أثيوبية القديمة من « الهمج » الذين
دنسوا دين المسيح !

ساحر الحبشة

ومن أكبر المجاميع الإسلامية في القارة الأفريقية مسلمو الحبشة وعادتهم مع المسلمين في الصومال وأريتريا لا تقل عن ستة ملايين .

وتجمع التواريخ التي كتبها الشرقيون والغربيون عن الحبشة في القرن التاسع عشر على سوء حالهم واضطهادهم ، وقد أمر أحد ملوكهم يوحنا بتنصير سكان الحبشة جميعاً ومنهم المسلمون ، وجاء في إحدى الرسائل التي كتبها جوردون إلى أخته « أن يوحنا — ويا للعجب — يشبهني تعصباً للدين وله رسالة سينجزها ، وهي تنصير جميع المسلمين » (١) .

وقد أشار ترمينغهام في كتابه عن « الإسلام في الحبشة » إلى أعمال يوحنا هذا فقال في صفحة ١٢٢ « إن بعض المسلمين تحولوا إلى بلاد الغالا أو المنخفضات الإسلامية أو البلاد الوثنية حيث ينشرون دينهم ، وبعضهم تنصر ولكنهم لا يعنى لديهم إلا القليل ، إذ كان مقصوراً على التعميد وأداء العشر ، وقد قال الكاردينال ماسيا Massaia إنه رأى بعينه أناساً منهم يخرجون من

(١) صفحة ١٥٥ من رسائل جوردون التي طبعت سنة ١٩٠٢ .

الكنيسة التي عمدوا فيها إلى المسجد ليزيلوا أثر العبادة على يد
الإمام» (١) .

وبعد أن قتل هذا الملك في حربه مع الدراويش حسنت أحوال
المسلمين بعض الشيء ولكنهم تعرضوا لمظالم شتى يذكرها السياح
من الأوروبيين كما ذكرها السياح الشرقيون في كتب الرحلات
الحديثة .

السودان

ونريد بالسودان هنا جملة الأقطار الأفريقية التي يقطنها الزنوج...
وفيه مسلمون في جماعات قليلة أو متفرقون بين بواديه وقراه .
وموقف الحكومات الأجنبية في أقطار هذا السودان جميعاً هو
موقف المقاومة كما يؤخذ من تقارير المبشرين والسياح من الأوربيين ،
وقد تمنع هذه الحكومات رسالات التبشير من دعوة المسلمين إلى
النصرانية ولكنها تيسر لهم عملهم كل التيسير في بلاد الوثنيين ، فتبيح
لهم السفر إلى أقصى الجهات وتحرمه على الجلابة والفقهاء وأصحاب
الخلوات (١) .

وصرح القس شو في سنة ١٩٠٩ « بأن قبائل الوثنيين ما لم تدخل
في المذهب الإنجيلي قريباً فهي حتما صائرة إلى الإسلام » .
وعقب ترميغهام على هذا في كتابه عن محاولة المسيحية مع
الإسلام في السودان فقال في صفحة ٣٨ « ولكن هذا الخطر قد زال
الآن » .

ويفهم من كتاب السودان المتغير The changing Sudan
تأليف ولسون كاش Cash أنه ما من قائد أو رائد أرسلته مصر إلى
أعلى النيل في القرن التاسع عشر بإيعاز من الدول إلا كان من
رواد التبشير على وجه من الوجوه .

(١) صفحة ٢٤٨ من كتاب « الإسلام في السودان » .

التبشير على الأجمال

وبعد هذه الخلاصة العاجلة عن موقف الإسلام من الاستعمار في القرن التاسع عشر على الخصوص - نوجز الموقف الذي يقفه منه جماعات التبشير بعد تجربة قرن كامل في مختلف الأقطار .

فالتقارير التي كتبها رسل التبشير بجمعة على صعوبة تحويل المسلم عن معتقده إلى دين آخر ، وأكثر هؤلاء المبشرين تابعون لكنيسة رومة أو لكنيسة الإنجيلية ، ومنهم من يجتهد في تحويل المسيحيين الشرقيين إلى مذهبه لأن التحول من مذهب إلى مذهب في ديانة واحدة أيسر من التحول من ديانة إلى أخرى .

وربما شجر النزاع بين المبشرين من المذهبين في أواسط أفريقيا وفي الشرق الأقصى من آسيا ، وربما انتهى أمرهم جميعاً بين المسلمين إلى الكف عن الدعوة والاكتفاء بالقدوة والتعليم على أمل النجاح بهما حيث أخفقت الدعوة الصريحة كما ذكر داعيتهم الكبير ترمنهام في كتابه عن محاولة المسيحية مع الإسلام في السودان .

وجملة الموقف الآن أن جماعات التبشير قد فرغت أو كادت من اتخاذ الإسلام هدفاً لدعوة التنصير ، وهي تنظر إليه الآن نظرتها إلى منافس خطر في بلاد الوثنيين من الآسيويين والأفريقيين ، وإذا أمنت خطره فقد تستريح إليه للتعاون على مقاومة الدعوة إلى المذاهب

الهدامة أو مذاهب الإلحاد ، وبخاصة في البلاد التي تصطدم لديها
الكتلتان الشرقية والغربية .

ويبدو لنا أن هذه الجماعات في الشرق إنما تطيل رسالتها لاستبقاء
الإتاوات المخصصة لها في بلادها ، ولو كان بقاؤها على قدر نجاحها في
التبشير لعدلت عنه منذ عهد بعيد .

ولكن هذه الجماعات التي تمدها الإتاوات والحبوس من بلادها
تخفي بغرضها المدخول وراء كل غرض ظاهر من التعليم أو التطبيب
أو الإحسان . ولها أساليب ملتوية لمحاولة التأثير ، نذكر منها أسلوباً
صغيراً اختبره كاتب هذه السطور في تشجيع بعض ذوى الأقلام
وغمط الآخرين من يحذرون خدمتهم الثقافية ، فلا يخفى على أحد في
الشرق العربي أن كل ترتيب للكتاب العشرين الذين تشيع كتبهم
بين قراء العربية لا بد أن يرد فيه اسم كاتب هذه السطور في آخر
القائمة على الأقل إن لم يرد في أولها ، ولكن إحدى هذه الجماعات
زعمت أنها تعنى بترتيب الكتب العربية التي تقرأ في الشرق فلم يأت
بينها ذكر لكتاب واحد ألفناه ، ولم تصنع شيئاً بهذا السفساف
إلا أن تدل على النية المدخولة والتواء الأسلوب . . . ومن دلالة
كهنه يظهر ما وراء هذه الجماعات من الغرض ، وإن ابتعدت عنه في
الظاهر غاية الابتعاد .

الدعوات ونهضات الإصلاح

أتى على الأمم الإسلامية حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً .
حرمت العلم والثروة والسلاح والحرية والمسكينة السياسية ،
وهي عدة الأمم في تنازع البقاء .

والويل للأمم التي تحرم هذه العدة في الحالتين .

الويل لها إذا أحست نقصها ، والويل لها إذا غفلت عنه ولم
تفطن لمصائبها .

فإن إحساسها بالنقص في جميع هذه العدد يذلها وييشيها ويهون
عليها الخضوع لغيرها والاستسلام لسوء مصيرها .

أما الغفلة عن النقص فهي أشد عليها من الإحساس به إن كانت
هناك حالة أشد من حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمسكينة
السياسية ، لأنها تزيد عليها حرماناً آخر لا تزال له بقية فيها ، وهو
الحرمان من محاولة التبديل ، إن كان للمحاولة سبيل .

ويحدث في بعض هذه الأحوال أن تتناسك الأمة بعض التماسك
لاعتصامها بكبرياء الجنس أو بكبرياء الدم والسلالة ، وهي كبرياء
تخامر النفوس بغير حجة وتداخل الجاهل مداخله العارف أو أشد
وأقوى .

فالجنس الأصفر ينظر إلى الأمم الأخرى كأنها الغريب المتطفل

على العالم لأن أوطانها في عرفها هي مركز العالم ومحوره ، فلا محل في خارجه لغير المتطفلين المشردين .

والجنس الأسود يعيب على جميع الأمم أنها لا تأخذ بعاداته ومراسمه ، واليونان الأقدمون كانوا يحسبون الناس ما عداهم في زمرة واحدة هي زمرة البرابرة ، والمصريون يحسبون الناس واليونان منهم أجلافاً مستوحشين ، والعرب يسمون غيرهما عجم ، والعجم يأنفون من عيشة الصحراء كأنها مسبة لمن يقبلها ومسبة لمن يفضلها على غيرها .

وكان للأمم الإسلامية أن تلوذ بهذه الكبرياء لولا أنها تنسب إلى جميع الأجناس ، وقد تنسب في رقعة واحدة إلى البيض والسود والصفير كما تنسب إلى الآريين والساميين والحاميين ، وأعلم من فيها يعلم أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى .
ففي هذه المحنة التي مرت بالأمم الإسلامية في عصر الاستعمار لم تكن لها غير عصمة واحدة : وهي عصمة الدين .

عصمتها لأنها لم تهلك هلاك الأمم التي حرمت مقومات الحياة وعدد الكفاح فاستسلمت ويئست وأيقنت أنها أقل من سائر الأمم في جميع الصفات وأنها محتاجة من تلك الأمم إلى كل شيء .

وعصمتها لأنها لم تهلك هلاك الأمم التي تجهل حاجتها وتفعل عن نقصها ، لأن نزولها منزلة العبودية كاف وحده لتعريفها بتبدل حالها وقبولها ما ليس ينبغى أن تقبله وتستقر عليه .

بقى لها شيء يوحى إليها أنها ليست ضائعة محرومة من كل شيء

بعد حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية .

ولم يكن هذا الشيء كبرياء الجنس العمياء أو كبرياء الحيوانية في الإنسان ، بل كان شيئاً يليق بالإنسان لأنه منوط بأشرف مزاياه وهي مزية الضمير والوجدان .

بقي لها الإيمان بدينها .

بقي لها الإيمان بأنها في حالة ان تدوم . وأنها قبيحة أن تغيرها لو غيرت ما بنفسها ، وأن الله يريد منها هذا التغيير ويعينها عليه .

ولم يزل الإسلام منذ كان يعلم المسلم أنه مطالب بعلم الدين وعلم الدنيا ، وأن نبي الإسلام — فضلاً عن هو دونه — قد يقول لمن يهديهم إنكم أعلم بأمور دنياكم .

وانحلت المعضلة الكبرى على هذه الصورة التي لا صعوبة فيها على النفس المسلمة ، ففي وسع الدول المستعمرة أن تتغلب بسلاحها ، وفي وسع الأمم الإسلامية أن تدفعها بمثل ذلك السلاح إذا ملكته ، وعليها أن تملكه بأمر دينها .

هذه العصمة هي سر العقيدة الوافية الذي تلوذ به حين تخذلها كل عصمة ، وهو قيمة حقيقية لا تفرط فيها أمة متى وجدتها ولا يكون التفريط فيها إلا علامة على الوهن والانحلال .

ولم تشعر الأمم الإسلامية بمثل هذا الشعور قبل عصر الاستعمار . لم تشعر به في عهد الحروب الصليبية لأنها خرجت منها وهي مالكة لبلادها منفردة بانتصارها وارتداد المغيرين عليها .

ولم يكن ثمة فارق في عدد القتال بينها وبين الصليبيين فيدخل في روعها أنها مطالبة باقتباسه مفتقرة إليه .

ولم يكن في أحوال الصليبيين ما تغبطهم عليه ، بل كان الآكثرون منهم على حالة يترفع عنها بنو الحضارة ويحسبونها من التخلف والهمجية .

أما صدمة الاستعمار فلم تكن من هذا القبيل ، ولم تكن بالصدمة للعارة التي تمر في ساعتها ولا تترك بعدها عبرة للمعتبر ولا أثراً للتأثر ، بل كانت هي الصدمة الماثلة أمام كل نظر ، الملاحظة في كل حين ، المتجددة في كل جهة ، المعاودة على نحو واحد في جميع الأقطار وعلى اختلاف التجارب والأحداث .

وقد تقدم في خلاصة أحداث القرن التاسع عشر أن هزائم تركيا وإيران ومراكش ومصر كانت هي نقطة التحول في تواريخ تلك الأمم ، وأن الجامدين على القديم لم يؤمنوا بضرورة التحول إلا بعد هزيمة من هذه الهزائم ، وعسى أن تكرر هواناً شيناً وهو خير .

وسيتبين من « رد الفعل » الذي أعقب هذه الهزائم أن « العالم الإسلامي » لم يزل بنية حية تستجيب للوثرات وتستبقى منها ما صلح وأجدى .

وتلك هي العلامة الصادقة على كل بنية حية .

علامتها أن تستجيب للوثرات وأن تعالجها بما يصلح ويجدى ، فلا يبقى في البنية عارض من حقه أن يطرد وينفى .

إن رد الفعل الذي أعقب الهزائم أمام الاستعمار قد تنوع بكل

نوع يخطر على البال ، فكانت منه الدعوة إلى معاودة القديم على قدمه ، وكانت منه الدعوة إلى البدعة التي لم تسبقها سابقة ، وكانت منه الدعوة إلى حفظ الأصول واقتباس الجديد على توافق واتصال ، وكانت منه الدعوة الغالية والدعوة المعتدلة ، فلم تستبق البنية الحية من جميع هذا إلا ما هو جدير بالبقاء ، ودلت البنية الحية بذلك على نصيبها من الحياة .

وسنعلم الأصلح من هذه الدعوات في خلاصة سريعة لما أرادته ولما حققته ولما تركته بعدها غير قابل للتحقيق أو قابلاً له على مدى من الزمن قد يقصر وقد يطول .

الدعوة الوهابية

كان أول هذه الدعوات في تاريخ ظهورها دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الذي ولد في أوائل القرن الثامن عشر للهجرة ببلد العينية من نجد في جزيرة العرب .

وسبق هذه الدعوة في تاريخها يرجع إلى بساطة المجتمع الذي ظهرت فيه وإلى ابتعاده في داخل شبه الجزيرة عن عوائق الحياة العصرية بين الأمم الإسلامية الأخرى التي تختلط فيها عوامل السياسة والاجتماع .

وقد ترجم له المولى محمود الألوسي صاحب تفسير روح المعاني وهو بعض مريديه فقال إنه « ابن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاض بن ريس بن زاهر بن محمد بن علي بن وهيب التيمي النجدي صاحب الدعوة المشهورة » .

قال : « وقد نشأ الشيخ محمد في بلد العينية من بلاد نجد في حجر أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضي في بلد العينية في زمن إمارة عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر المشهور صاحب العينية التي تزخرت في أيامه ، وذلك قبل انتقال الشيخ عبد الوهاب إلى بلد حريلة من بلاد نجد . فقرأ الشيخ محمد على أبيه الفقه على مذهب

الإمام أحمد بن حنبل ، وكان الشيخ محمد في صغره كثير المطالعة
لكتب التفسير والحديث والعقائد ، فصار ينسك على أهل نجد كثيراً
من الأمور فلم يسعفه على ذلك أحد وإن استحسن إنكاره بعض
الناس ، فسافر من بلده العينية إلى حج بيت الله الحرام فلما قضى نسكه
صار إلى المدينة فأخذ فيها عن الشيخ العالم عبد الله بن إبراهيم
ابن سيف من آل سيف رؤساء بلد الجمعة المعروفة في ناحية سدير
من نجد ، والشيخ عبد الله هو والد الشيخ إبراهيم مصنف كتاب
« العذب الفاضل في علم الفرائض » .

وروى الألويسي في الهامش أن محمد بن عبد الوهاب كان عنده
يوماً فقال له : تريد أن أريك سلاحاً أعددت للجمعة ؟ قال محمد بن
عبد الوهاب : نعم . قال : فأدخله منزلاً فيه كتب كثيرة فقال : هذا
الذي أعددت لها .

ثم استطرد الألويسي فقال إن الشيخ محمد بن الوهاب أنكروا
استغاثة الناس بالنبي ﷺ عند قبره ، ثم رحل إلى نجد ثم إلى البصرة
يريد الشام ، فلما ورد البصرة أقام فيها مدة وأخذ على العالم الشيخ
محمد المجموعي من أعلى المجموعة محلة من محال البصرة ، فأنكر أيضاً
أشياء كثيرة على أهل البصرة فأحس الناس به فآذوه وأخرجوه
وقت الهجرة ، ولحق بعض الأذى الشيخ محمد المجموعي أيضاً
لمؤاناته للشيخ محمد . فلما خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب هارباً من
البصرة وتوسط الطريق فيما بين البصرة وبلد الزبير في وقت الصيف
في شدة الحر وكان ماشياً على رجله كاد يهلك من شدة العطش فوافاه

رجل من أهل بلد الزبير يسمى أبا حميدان ووجدته من أهل العلم فسقاه الماء وحمله على حماره حتى أوصله إلى بلد الزبير . ثم إن الشيخ محمداً أراد السفر إلى الشام فضايق زاده فأنثنى عزمه عن الشام فقصد الاحساء فنزل بها عند الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الاحسائي ثم خرج من الاحساء وقصد بلد حريملة من نجد ، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب قد انتقل إليها من بلد العينية سنة تسع وثلاثين ومائة وألف بعد وفاة عبد الله بن معمر صاحب العينية في الوباء الذي وقع بها فأفناها ، وتولى فيها بعده ابن ابنه محمد بن حمد الملقب بخرفاش ، فوقع بينه وبين الشيخ عبد الوهاب منازعة فعزله عن قضاء العينية وجعل مكانه أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب ابن عبد الله النجدي قاضياً ، فانتقل الشيخ عبد الله إلى بلد حريملة ، ولما وصل الشيخ محمد إلى بلد حريملة لازم أباه وقرأ عليه وأظهر الإنكار على أهل نجد في عقائدهم فوقع بينه وبين أبيه منازعة وجدال وكذلك وقع بينه وبين الناس في بلد حريملة جدال كثير فأقام على ذلك مدة سنتين حتى توفي أبوه الشيخ عبد الوهاب سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف .

ثم أعلن الشيخ محمد بالدعوة والإنكار على الناس ، وتبعه أناس من أهل حريملة واشتهر بذلك ، وكان رؤساء بلد حريملة قبيلتين أصلهما قبيلة واحدة وكل منهما يدعى الرئاسة ، وليس في البلاد رئيس يحكم على الجميع ، وكان لإحدى القبيلتين عبيد يقال لهم الحيان وهم أهل الفساد ، فأراد الشيخ محمد أن يمنعهم من فسقهم وفجورهم ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، فهم العبيد ليلاً يقتل الشيخ محمد خفية ،

فلما تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس فصاحوا بهم ،
فاقتتل الشيخ محمد من بلد حريلة إلى العينية ورئيسها يومئذ عثمان
ابن حمد بن معمر ، فتلقاه بالقبول وأكرمه وحاول نصرته وقال
لعثمان : إني أرجو إن أنت قت بنصر (لا إله إلا الله) أن يظهر
الله وتملك نجداً وأعرابها ، فساعدته عثمان فأعلن الشيخ محمد بالدعوة
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشدد في التنكير على الناس
فتبعه بعض أهل العينية وقطع أشجاراً كانت تعظم في تلك النواحي
وهدم قبة قبر زيد بن الخطاب رضى الله عنه عند الجبيلة فعظم أمره
فبلغ خبره إلى سليمان بن محمد بن عزيز الحميدى صاحب الأحساء
والقطيف وما حوله من العربان ، فأرسل سليمان كتاباً إلى عثمان
وكتب فيه : إن المطوع الذى عندك قد فعل ما فعل وقال ما قال
فإذا وصلت كتابي فاقتله ، فإن لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا
في الأحساء وكان خراجه ألفاً ومائتين ذهباً وما يتبعها من طعام
وكسوة

فلما ورد الكتاب إلى عثمان لم تسعه مخالفته فأرسل إلى الشيخ
محمد وأخبره بكتاب سليمان وقال له : لا طاقة لنا بحرب سليمان ،
فقال الشيخ محمد : إنك إن نصرتنى ملكت نجداً ، فأعرض عنه
عثمان . وأرسل إليه ثانياً أن سليمان قد أمرنا بقتلك في بلدنا ، فشأنك
وتقصك وخل بلادنا ، وأمر فارساً يقال له الفريد الظفيرى بإخراجه
من البلد ، فركب الفارس جواده والشيخ يمشى على رجليه أمامه
وليس معه إلا المروحة وذلك في أشد الحر من الصيف ، فهم الفارس

بقتله في الطريق ، فكف الله يده عنه لما أصابه من الرعب والخوف العظيم وخلي سبيل الشيخ فصار الشيخ إلى الدرعية ، وكان ذلك سنة ستين بعد المائة والألف ، ووصل إليها وقت العصر فنزل في بيت عبد الله بن سويلم العريني ، فلما دخل عليه ضاقت به داره وخاف على نفسه من محمد بن سعود صاحب الدرعية فوعظه الشيخ وسكن جأشه وروعه ، وقال : سيجعل الله لنا ولك فرجاً ، فاستقر فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله ويرغبه في نصرته ، فالتجأ إلى أخويه مشاري وثنيان ولدى سعود وزوجته موخى بنت أبي وحطان من آل كثير ، وكانت ذات عقل وفهم ، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقذف الله محبة الشيخ في قلبها فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله وقالت له إن هذا الرجل أتى إليك وهو غنيمة ساقها الله تعالى إليك ، فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته ، فقبل قولها وألقى الله محبته في قلبه ، ورغبوا محمد بن سعود في زيارته لعل ذلك يكون سبباً لتعظيم الناس له وإكرامه . فصار محمد بن سعود إليه فلما دخل عليه في بيت ابن سويلم رحب به وقال : أبشر بالخير والعزة والمنعة ، فقال له الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد . وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهي كلمة التوحيد وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم

واستطرد الألوسي إلى تعاهد الرجلين على النصرة إذ قال الشيخ الأمير : أما الأولى فامدد يدك فدها وقبضها وقال له الدم بالدم

والهدم بالهدم ... (١) وأما الثانية فلعل الله تعالى يفتح عليك الفتوحات
فيحوضك من الغنائم ما هو خير منه ، أى من خراج أهل الدرعية .
فبايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الجهاد والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى استقامة الشعائر .

إلى أن قال : « ثم أمر أهل الدرعية بالمقاتلة معهم فامتلوا أمره
وقاتلوا أهل نجد والإحساء دفعات كثيرة إلى أن أدخلوهم إلى طاعتهم
وحصلت إمارة بلاد نجد وقبائلها جميعاً لآل سعود بالغبلة ، وكان
الشيخ كثير العطايا بحيث كان يهب كل ما غنمه الجيش مع كثرتة إلى
رجلين أو ثلاثة ، وفي تاريخ ابن بشر إلى حمد وابنه عبد العزيز ،
وكانت الغنائم تسلم بيده ثم هو يضعها حيث يشاء ويعطيها إلى من
يشاء ولا يأخذ أمير نجد شيئاً من ذلك إلا بأمره ولما فتحوا
الرياض من بلاد نجد واتسعت بلادهم وأمنت الطرق وانقاد لهم
كل صعب فعرض الشيخ أمور الناس وأموال الغنائم إلى عبد العزيز
الأمير وانسأخ الشيخ وتفرغ للعبادة وتعليم العلم ، ولكن لا يقطع
عبد العزيز الأمير ولا أبوه أمراً ولا ينفذ حكماً إلا بأمر الشيخ محمد ،
وتوفي الشيخ المشار إليه في سنة ست بعد المائتين والألف ، وهي
السنة التي غزا فيها سعود بن عبد العزيز ناحية جبل شمر وأخذ أهله

(١) أى دى دمك وهدى هدمك . قال أبو عبيدة : كانوا في الجاهلية
الأولى إذا محالفوا وتماقدوا أو قدوا ناراً حتى تكاد تحرقهم . . . ويهاجون
عندها ويقولون الدم الدم والهدم الهدم . . انتهى من شرح الألوسي .

وكسب منهم أموالاً كثيرة منها ثمانية آلاف بعير ، وقتل منهم عدة رجال فأخرج خمسها وقسم الباقي على جيشه .

قال الألوسي : « وله من التصانيف كتب كثيرة ، منها كتاب التوحيد وتفسير القرآن وكتاب كشف الشبهات وغير ذلك من الرسائل والفتاوى الفقهية والأصولية وأعقب أربعة أولاد كلهم من أجلة العلماء وهم الشيخ حسين والشيخ عبد الله والشيخ علي والشيخ إبراهيم تغمدهم الله برحمته أجمعين . »

والكتاب الذي تضمن دعوة الشيخ من هذه الكتب التي ذكرها المولى الألوسي هو كتاب « التوحيد حق المولى على العبيد » وفيه يحصى الشيخ الذنوب التي تكفر صاحبها وتعتبر شركاً بالله ، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الأحرار والأولياء ، ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ، ومن الشرك اتخاذ الرقي والتائم للوقاية والتبرك بالشجر والحجر ، والذبح لغير الله والنذر لغير الله والاستعانة بغير الله ، والعبادة عند القبور ، وأن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله ، وأن السكينة والعيافة والتطير والتنجيم من الشيطان ، وأورد الشيخ الآيات والأحاديث التي تحرم الاستسقاء بالأنواء ، وأنكر على المتصوفة تأويلاتهم وخوارقهم ، واستشهد على تحريم الصور بقوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى » وبقول النبي عليه السلام في رواية عائشة : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وحذر من المغالاة في تعظيم النبي عليه السلام مستشهداً بقول أنس : (إن ناساً قالوا يا رسول الله يا خيرنا

وابن خيرانا وسيدنا وابن سيدنا فقال : أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي التي أنزلني الله عز وجل .

وكان الشيخ ينسكركم الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام : « إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » وقوله عليه السلام : هلك المتنطعون . هلك المتنطعون .

ولا آخر للمناقشات التي دارت حول دعوة ابن عبد الوهاب مقابلة لتفسير بتفسير أو آية بآية أو لحديث بحديث أو مخالفة لما يفهم من مقاصد هذه الآيات وهذه الأحاديث ، فلا يعنيننا هنا أن نفصلها أو نخوض مع الخائضين في جدلها ، ولكننا نرى في جملة ما تصفحناه من الآراء المتقابلة أن الإجماع منعقد أو يكاد على استنكار البدع والخرافات التي ذكرها ابن عبد الوهاب ولكن الخلاف على الشرك والتكفير أو على درجة الشرك الذي يخرج صاحبه عن الملة . وأكبر من خالف الشيخ في ذلك أخوه الشيخ سليمان صاحب كتاب الصواعق الإلهية ، وهو لا يسلم لأخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنة ويقابل تفسيراته بتفسيرات تذهب في غير مذهبها ، ويعتمد على ابن تيمية وابن القيم في مناقشة أخيه فيقول إن من أصول أهل السنة المجمع عليهم كما ذكرها « أن الجاهل والمخطئ من هذه الأمة يعذر بالجهل والخطأ حتى تبين الحجة التي يكفر تاركها بياناً واضحاً لا يلتبس على مثله أو ينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعاً جلياً قطعياً يعرفه كل من المسلمين » ويرى أن البدع التي يميز

بها الأئمة جيلاً بعد جيل ولا يكفرون أصحابها لا يكون الكفر فيها من الزوم الذى يوجب القطع به ويستباح من أجله القتال ويقول فى ذلك : « إن هذه الأمور حدثت من قبل زمن الإمام أحمد فى زمان أئمة الإسلام وأنكرها من أنكرها منهم ولا زالت حتى مالت بلاد الإسلام كلها وفعلت هذه الأفاعيل كلها التى تكفرون بها ولم يرو عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفروا بذلك ولا قالوا هؤلاء مرتدون ولا أمروا بجهادهم ولا سموا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم بل كفرتم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها ، أظنون أن هذه الأمور من الوسائط التى يكفر فاعلها إجماعاً وتمضى قرون الأئمة من ثمانمائة عام ولم يرو عن عالم من علماء المسلمين أنها كفر ؟ نبهنا الله وإياكم من الضلال » .

وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقي فى رسالته عنفاً فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت إطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع والتماس المصالح بغير أسبابها وإتيان المسالك من غير أبوابها ، وقد غر على البادية زمان يتكلمون فيه على التعاويد والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين ويدعون السعى من وجوهه توسلاً بأباطيل السحرة والدجالين حتى فى الاستسقاء ودفع الوباء ، فكان حقاً على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة ، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوان من البدع والخرافات ، ولكن المهم فى الإصلاح أن ينصرفوا عن الجهل الذى يوقعهم فى بدع غير تلك البدع وخرافات غير تلك الخرافات ، وأن يكون النهى على قدر الضرر الزائل وعلى قدر النفع المنتظر . وهذا ما بقى للزمن أن يحكم فيه بعد دعوة ابن عبد الوهاب .

السَّنُوسِيَّةُ

وتقارب الوهابية في عصرها دعوة أخرى في البادية هي السنوسية التي تنسب إلى السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الذي ولد ببلدة مستغانم من بلاد الجزائر (سنة ١٧٨٧) .

والدعوتان تشابهان في حماسة الدعوات البادية وفي نبذ البدع والخرافات والرجوع بالإسلام إلى الكتاب والسنة ، ولكنهما تختلفان بعد ذلك في أمور كثيرة .

فلايست السنوسية مذهباً ولا نحلة ولا نقضاً لمذهب من المذاهب وإنما هي « أخوة » في الله أو طريقة يتبعها من شاء من المسلمين ولا يطلب منه عند اتباعها غير قراءة الفاتحة على العهد ، واتباعها على درجات أولها درجة الخواص ثم الإخوان ثم المنتسبون ، ولا فرق بين هذه الدرجات في غير العلم والإخلاص وحسن السيرة والولاء للآخرين ، ولا يشترط في درجاتها العليا أن تنحصر في البيت السنوسي بل يكون منهم الأقرباء وغير الأقرباء .

والسنوسي مجتهد ولكنه يتبع مذهب الإمام مالك إلا في القليل الذي صح عنده أنه أقرب إلى السنة ، ولا يتصدى بالنقض لأحد من الأئمة بل كان أبغض الأشياء إليه — كما قال الشيخ محمد بن عثمان الحشايشي في رحلته — أن يسمع مقالة السوء في إمام أو غير إمام ،

وقد تعرض للمقتل من جراء اجتهاده وألمع الأستاذ الإمام محمد عبده إلى ذلك في كتابه عن الإسلام والنصرانية إذ يقول : « ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين وتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترى الأستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لولاقاه وإنما الذي خالص السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسي للقاهرة » .

وقد اجتهد الشيخ في مذهبه بعد أن حضر دروس الفقه والتفسير والحديث في بلده وفي مراکش ولقي العلماء بمصر ومكة واليمن وصاحب بعض أئمة الطرق في المغرب والمشرق ، ثم ضاقت به سبل الدعوة تحت نظر الحكومة العثمانية التي كانت تتوجس من أمثال هذه الدعوات فعكف على زاويته البيضاء واختار لمقامه واحدة جخوب وبنى بها مسجداً ومدرسة للعلوم الدينية واستصوب أن ينشر طريقته بنشر الزوايا في أرجاء العالم الإسلامي فانتشرت حيثما استطاع بين برقة وطارابلس ومصر والسودان وبلاد العرب ، واطلعنا في كتاب « سنوسي برقة » الذي ألفه برتشارد Pritchard على أسماء مائة وست وأربعين مدينة وقرية فيها زوايا للطريقة ويوشك أن يكون

شيوخ هذه الزوايا مرجعاً لأتباعهم في أمور الدين والدنيا يرشدونهم
إلى الفرائض والواجبات ويفضون خصوماتهم ويكفونهم عن الشر
كما قال ابن مقرب :

فكم من حريم قد أباحوا وأجحفوا بمال غني لا يخافون عادياً
فأرشدهم للرشد من حل بينهم فلا زال مهدياً ولا زال هادياً
وكم بدوى في الفلا خلف ذاقة «يجول» على الأعقاب أشعث حافياً
تلقاه في مهد الضلالة هاوياً فأصبح نجماً في الهداية عالياً
وكم من جهول أسود اللون خلقة كساه لباس العلم أبيض صافياً

ولا تبيح السنوسية الغلو في تقديس المشايخ الأحياء أو
الأموات ، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتاً عند قبره بغير الدعاء
له والترحم عليه ، ولكنها لا تمنع اللياذ بالمقامات للعبادة والتبرك ،
وشرعتها في ذلك أنها نشأت حيث كانت مقامات المرابطين من عهد
الاندلس فأرادت أن تجددوها ولا تشعر أهل الصحراء بالتقجم عليها .

وكان الشيخ السنوسي — بخلاف الغالب على مشايخ الطرق —
خبيراً بأحوال السياسة العالمية فوقر في ذهنه أن النابالطان أى
الايطاليين مغبرون لا محالة على برقة في يوم قريب فأوغل بمقامه إلى
واحة الكفرة على طريق السودان ليشرّف من ثم على تعليم أهل
الصحراء جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ويهيء في جوف الصحراء
ملاذاً لمن تقصيصهم غارات المستعمرين عن السواحل ومدن الحضارة .

وتوفي الشيخ سنة ١٨٥٩ فدفن بالجغبوب حيث بنى مزاره
الكبير وخلفه على إمامة الطريقة ابن أخيه السيد أحمد الشريف .

وقد كان أثر الطريقة السنوسية في المغرب والسودان والصحراء
الكبرى أثراً صالحاً في جملته وشهداً ما لأبناء الشيخ وعشيرته من
السلطان الروحي بين أهل البادية في رحلتنا الانتخابية يوم كنا نرشح
للنيابة عن الصحراء فرأينا من هذا السلطان ما لم تبلغه القوة وخفاقة
السطوة ، وحدث مرة أن واحداً من أصحابنا ألقى على جموع من البدو
إلى جوار بيت السيد السنوسي بمرسی مطروح أكواباً من الورد
المقوى لشرب الماء فتهاقوا عليها وتعذر على الجند أن يفضوهم
بالحسنى ؛ فها هو إلا أن نهض السيد إبراهيم وناداهم إلى قراءة الفاتحة
حتى تركوا ما هم فيه جميعاً وقاموا يتبعونه في تلاوتها ثم أوما إليهم
فانصرفوا بسلام .

ويرى العارفون بالصحراء أن هذا السلطان الروحي ينبسط إلى
جوفها الأقصى ويهدي أبناءها مع حسن التعهد والقوامة إلى سبيل
الصلاح والتعمير .

طرائف أخرى

وقد عاصرت الوهابية والسنوسية حركات كبيرة أكثرها من قبيل الطرائق و « الأخوات » التي تنشر الزوايا والخلوات في البوادي الشاسعة كالصحراء الغربية وما يليها ، ومنها طرائق تضارع في كثرة أتباعها الوهابية والسنوسية ، ولكنها نمط آخر من الحركات الإسلامية التي لا ترتبط بحوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين خاصة ، ويصح أن تظهر قبل ثلاثة قرون أو أربعة كما يصح أن تظهر بعد العصر الحاضر في بيئاتها التي تلائمها ، فليست هي من قبيل رد الفعل للعوارض السياسية أو الاجتماعية التي أصابت الدول الإسلامية في القرون الأخيرة ، لأن أمثالها من حركات الاعتكاف قد ظهر قبل ستمائة سنة وشعاره الغالب عليه « دع الخلق للخالق » بخلاف الحركات الأخرى التي تتصدى لشؤون السياسة بالتأييد أو بمقاومة تهيء العدة للمستقبل في هذا الميدان .

وأكبر الطرائق التي عاصرت الدعوة السنوسية على وجه التقريب طريقتان : إحداهما شاعت في المغرب وشواطئه ثم في السودان وآسيا الصغرى وهي الطريقة التجانية ، والأخرى شاعت في الحجاز ثم في مصر والسودان وهي الطريقة الميرغنية .

وتنسب الطريقة التجانية إلى تيجان بالمغرب حيث أقام إمامها الشيخ « أحمد محمد المختار » الذي ولد بقرية « عين ماضي » سنة ١٧٣٧

ميلادية ، وكان في شبابه من أتباع الطريقة الشاذلية ثم دعا إلى طريقته بعد أن جاوز الأربعين ، ومن آداب هذه الطريقة أنها لا تناهض الحكم القائم ولا يعنى أتباعها بعد الولاء لشيخها بتغيير السلطان حيث كان ، فمنهم من بايع الدولة الشريفة بمراكش ، ومنهم من بايع محمد سعيد باشا بمصر واعتبره من الزمرة التجانية ، ومنهم من كان يسفر بين سلطان دارفور والسلطان العثماني عبد المجيد ، ولكنهم لا يقبأون الهوادة في مسألة الولاء للشيخ الكبير ويرتابون أشد الريب فيمن يشرك في ولائه أحداً غير إمام طريقته كأنه قابل لأن يتدرج من ذلك إلى المشاركة في ولائه لنبيه وخالفه ، وقد قال صاحب كتاب الرماح وهو من كتبهم المأثورة أن « من أكبر الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده ألا يشرك في محبته غيره ولا في تعظيمه ولا في الاستمداد منه ولا في الانقطاع إليه ويتأمل ذلك في شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن من سوى رتبة نبيه صلى الله عليه وسلم بمرتبة غيره من النبيين والمرسلين في المحبة والتعظيم والاستمداد والانقطاع إليه بالقلب والتشريع فهو عنوان على أن يموت كافراً إلا أن تدركه عناية ربانية » .

ويعرف أتباع التجانية في السودان باسم « الفلانة » وهو الاسم الذي يطلق في الغالب على الغرباء المهاجرين من شواطئ أفريقية الغربية ، ومن أتباعها من يقيم الآن في آسيا الصغرى ويحاول أن يسترد حرية في نشر الدعوة إلى الطريق وإلى شعائر الدين .

ويرجع الفضل الأكبر في انتشار الطريقة الميرغسية إلى السيد محمد عثمان الميرغني المتوفى سنة ١٨٥٣ ميلادية . أحد تلاميذ السيد

أحمد بن إدريس بالحجاز . وقد زامله في هذه النخبة السيد السنوسي الكبير ، وكلاهما عالم لا فقيه واسع التحصيل ولكن الميرغني أقرب إلى خلائق العزلة والتعمق في الأسرار الصوفية ، وزميله السنوسي أقرب إلى خلائق الدأب والمجاهدة والسياسة العملية ، ولهذا كان الملوك والأمراء يتابعون أخباره ويخشون بأسه من سلطان القسطنطينية إلى سلطان دارفور ، وكان المحافظون من العلية والرؤساء في الحجاز يميلون إلى الطريقة الميرغنية ويوجسون خيفة من شيوع السنوسية بين أهل البادية العربية والبادية المغربية ، ولم يتفق التليدان بعد شيخهما الكبير ولكنهما لم يتنازعا في مكان واحد ، وانقسم الميدان لهما بغير تقسيم .

كان الشاغل الأكبر للسيد محمد عثمان في شبابه أن يبحث عن الحقيقة الصوفية حيثما وجد سبيلا إليها ، فاتبع الطريقة النقشبندية ثم الطريقة القادرية ثم الطريقة الجنيدية ثم الطريقة الشاذلية طريقة أستاذه أحمد بن إدريس . وقد تدبه أستاذه للدعوة باسمه في مصر والسودان فبرح الحجاز إلى القصير وقصد إلى أسوان من طريق النيل فانتشرت دعوته بين النوبيين . وبرح مصر من ثم إلى السودان ونجح نجاحاً طيباً بين أهل دنقلة وكردفان واتبعه كثيرون من قبائل البجاة ، ثم قفل إلى الحجاز وواظب على حضور الدروس وملازمة أستاذه الكبير إلى يوم وفاته (سنة ١٨٣٧) ولكنه أحس العداء ممن كانوا يناقسونه في مكة فمكث على العبادة بالطائف واكتفى بجهود ولديه في نشر الدعوة إذ اتجه السيد محمد سر الختم إلى اليمن واتجه السيد الحسن

إلى عواكن فالتف به المريدون من قبائل بني عامر والحلائقة
وأكثرهم من البجاة .

ولم تظهر في العهد الحديث طريقة أكبر من هذه الطرق الثلاث :
وهي السنوسية والتجانية والميرغنية ، ويستأنفت النظر أن هذه الطرق
جميعاً تشيع بين السنين وقلباً تشيع بين الشيعة ولا سيما الشيعة
الإمامية ، ولعلها بين السنين بديل من اعتقاد الشيعة في الإمامة
المنتظرة بشروطها الخاصة التي يصعب ادعاؤها بغير ادعاء المهدية ،
وهي دعوى كبيرة يشتد الشيعة أنفهم في محاسبة من يجترئ عليها
فلا يقيم برهانها ولا تخلو من المخاطرة لأنها تصطدم بسلطان الدولة
وسلطان الدين .

إصلاحون لمصلحون

١ - السير أحمد خان

تقدم أن النهضة الإسلامية في القرن التاسع عشر قد اتسعت لكل تجربة من تجارب الإصلاح : إصلاح بالعودة إلى القديم ، وإصلاح بالتجديد ، وإصلاح بإحياء الحماسة الدينية ، وإصلاح بمجاراة الحضارة العصرية ، ودعوات يقوم بها الثائرون وأخرى يقوم بها المتطهرون المعتكفون ، وغير هذه وتلك دعوات يقوم بها المعلمون والمهذبون ، وسنرى أن هذه الدعوات — دعوات المعلمين المهذبين — كانت ألزم دعوات الإصلاح وأبقاها أثراً وأوفقها لكل زمان ومكان ، وأبعدها من أن تضيع عبثاً كيفما كانت أحوال الأمم التي تنجم فيها وتنمو بين ظهرانيها .

وقد ظهرت في أهم البيئات التي ينبغى أن تظهر فيها وفي الزمن الذي ينبغى أن تظهر فيه .

ظهرت في الهند وفي مصر وفيما بينهما من بلاد الشرق الأوسط ، وكان قاداتها على هذا الترتيب الزمني السيد أحمد خان الهندي والسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده المصري ، وهو المصلح المخضرم بين عصر الجود وعصر اليقظة والتقدم .

ولد السيد أحمد خان سنة ١٨١٧ بمدينة دلهي ولا تزال للدولة المغولية بقية فيها وكانت أسرته لأبيه وأمه من كبار المتصلين بها ، وخاله فريد الدين أحد وزرائها ، وقد أنعم عليه بهادر شاه — آخر ملوكها — بلقب « أستاذ الحرب » بعد وفاة والده ، ولما يبلغ العشرين .

وكان التقليد المرعى بين مسلمي الهند مقاطعة الوظائف في ظل الحكم الانجليزي ، ولكن نشأة أحمد خان بين رجال الدولة وشخته لولاية الوظائف فلم يرفض الوظيفة التي عرضت عليه في سلك القضاء .

وانفجرت ثورة الهند « سنة ١٨٥٧ » وهو قاض في بجنور خال جهده بين الثوار وقتل المسلمين والنساء ، ولم يمنعه ذلك أن يؤلف كتابه في أسباب الثورة فيلحق تبعاتها على الإدارة الانجليزية ويدحض ما قيل من تدبير هذه الثورة في بلاد الأفغان بإيعاز من الحكومة الروسية ، لأن أسبابها الوطنية كافية لمشوبها مغنية عن كل تدبير يتسلل إليها من خارج البلاد الهندية .

روى عن السيد أحمد خان وهو طفل صغير أنه دعي مع انداده وأهلهم إلى بلاط بهادر شاه فنودي عليه مع التلاميذ الذين استدعاهم الملك لتشجيعهم ومكافأتهم فلم يجب ، وتكرر النداء ولا جواب ، ثم وجده رجال الحاشية منزويًا في مكان قريب فسألوه : لم لم تجب حين نودي باسمك بين زملائك ، فلم يحجم أن يذكر السبب الصحيح ، وهو أنه انتظر وطال انتظاره فاستسلم للنوم !

وخذلك رجال الحاشية وظنوا أنه سبب لا يقال في حضرة
ملك ، فلم يشأ الصبي الصغير أن يتلطف في الاعتذار ويتعلل بسبب
غير هذا السبب الصحيح .

ولم يتغير أحمد خان بعد أن جاوز الأربعين ، فإنه كاشف أبناء
قومه بعله جمودهم ، ولم يقبل قط أن يتسلطهم ويخفي عنهم أسباب
قصورهم وعجزهم ، وصارح الدولة الحاكمة بأسباب الثورة وما يقع
عليهم من تبعاتها ، وصارح أبناء قومه بتبعاتهم فكانت خلاصة هذه
التبعات في رأيه أنهم « نائمون » .

وقد وصف السيد أحمد خان بالأنانة والحذر ، وكاد المترجمون له
أن يصفوه بالمبالغة في أناته وحذره ، ولكنهم لو وصفوه بالاقدام
أو المجهوم لوجدوا الدلائل على ذلك أظهر وأكثر من دلائل
الأنانة إن كان معنى الأنانة أن يتخلف المستأق عن العمل في حينه ،
فما تواني أحمد خان عن مصارحة الانجليز بتبعاتهم وعيوب إدارتهم ،
وما تواني عن مصارحة قومه بحمودهم وعجزهم ووسائل الخلاص
من نكبتهم ، وما تواني بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم
الحياة النيابية فيها على النحو الذي يصلح لجميع أبنائها مع تعدد
النحل وتفاوت النسبة في توزيع السكان ، ولكنه كان يتأني حين
يخشي مغبة العجلة ولا يؤمن بجداوها ، وكانت هذه الأنانة منه أدل
على الشجاعة من الهجوم السريع ، لأنه كان يغضب بها أضعاف
من يرضيهم بالتعجل في غير جدوى .

وقد عرف مكان الضعف في قومه ولم تخف عليه مكان القوة

في الدولة الغالبة على وطنه ، فجزم بضرورة التعليم الحديث ثم بدأ
بإرسال ابنه إلى الجامعات الانجليزية واعتزم أن يصحبه إليها ليطالع
بنفسه على حقائق الحضارة الأوروبية في بلادها ، وقد لخصها في
جوهرها أحسن تلخيص فجمع حقائقها النافعة في كلمتين : وهما العلم
والخلق . ورأى الشاب المسلم لا يكسب الخلق المتين بغير دين ،
فلخص برنامج الإصلاح عنده في الدين المستنير ، وجعل شعاره كله
كلمة واحدة يعيدها مرات : وهي علم ، ثم علم ، ثم علم ، أو تعلم ثم
تعلم ثم تعلم . بغير انقطاع عن التعلم أو التعاليم .

ولما توفي وهو في الحادية والثمانين كان للمسلمين في الهند مدرسة
كلية عالية ومدارس حديثة متفرقة ، وكان لهم ما هو أهم من ذلك
والزم وهو الوجهة المرسومة ومعالم الطريق التي لا تخفى على
ذئ عينين ، وقد خطا السيد أحمد خان هذه الخطوة التي أحجم عنها
معاصروه لأنهم لا يعرفونها أو لا يجسرون عليها ، فعرفها ولم يحجم
عنها . وقال من قال إنها الخطوة عظيمة واستصغرها آخرون فقالوا
إنه قد أطلال الأثناة فيها ، ولذكهم بمجمعون على أنها هي الخطوة التي
لا بد منها في البداية ، فلا تتأني الخطوات التالية إلا بعد الإقدام
عليها ، وقد أقدم عليها فاتبعه في الطريق من يؤثر العجلة ومن
يؤثر الأثناة .

والمعلم الأكبر جمال الدين من أبناء الأقاليم الوسطى . بين الهند والبلاد العربية وبلاد الدولة العثمانية ، وكأنما شاعت العناية أن يولد حيث يتوسط العالم الإسلامي ويتولى فيه دعوة الإصلاح والتعليم من أقصاه إلى أقصاه .

والقول المشهور أنه هو وآباؤه وأجداده من أبناء الأفغان ، ويقال غير هذا أنه ولد بقرية « أسد أباد » في جوار همدان من بلاد فارس ثم انتقل إلى الأفغان وتعمد إخفاء نسبته الفارسية بعد أن تجرد لدعوة الإصلاح في العالم الإسلامي كافة وتوقع من شاه العجم أن يطالب بتسليمه لأنه من رعاياه ، فضلا عن غلبة المذاهب السنية على البلاد التي خاطبها بدعوته ومنها بلاد الترك ومصر وسائر البلاد العربية .

إلا أنه لا خلاف في نشأته منذ صباه في بلاد الأفغان ، وفيها تعلم الفقه على مذهب أبي حنيفة ودرس علم الكلام وهو خلاصة الفلسفة الدينية ، كما أحاط بالميسور من علوم الرياضة والهندسة في كتب الأقدمين ، وكان في أخريات أيامه يعرف الفرنسية والتركية وقليلًا من الإنجليزية ، عدا الفارسية والعربية التي كان يتكلم الفصحى منها بطلاقة الفرس المستعربين .

وإذا لخصت رسالة جمال الدين في كلمتين فرسالته بالإنجاز هي « الجامعة الإسلامية » .

ولكن الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين شيء غير
الجامعة الاسلامية التي يراد بها توحيد الحكومات وضمها جميعاً
إلى حكومة واحدة ، وإنما يتوقف فهم هذه الجامعة على مراجعة
أحوال الأمم التي درج جمال الدين وهو يستمع إلى أخبارها
ويشارك في شؤونها ، وهي بلاد الأفغان وإيران ، وقبائل الترك
ومن وراءهم دولة بني عثمان ، ومن حولهم مطامع الاستعمار
ودسائسه في أوج سلطان المستعمرين من البريطان والروس بعد
اجتياحهم للهند وأواسط آسيا بزمن قليل .

فقد فتح السيد عيبيه على بلاد الأفغان وفارس وهي على 'عنف'
ما يكون من التنازع والبغضاء ، وكانت حكومة الهند البريطانية
تستغل الخلاف بين الـأمةتين في المذهب والخلاف بينهما على الحدود
كما تستغل حاجتهما إلى المال والسلاح ، فتغري إحداهما بالأخرى
وتبذل لها من مالها وسلاحها ما تقوى به على جارتها وتشرط عليها
إلا تعقد الصلح معها حتى تأذن لها وإلا قطعت عنها المدد والمعونة ،
وكانت حكومة الهند لا تأذن بالصلح إلا أن تكون الدولة المغلوبة
قد نزلت عن دعواها في الحدود الهندية .

وربما سكن القتال بين الأفغان والفرس على مقربة من الهند
ليفشب بين الفرس والترك من قبل العراق وبحر الخزر بإيعاز من
الروس أو طلاب الرخص الاقتصادية ، وينتهي القتال من هنا
وهناك بغنيمة للانجليز أو للروس وخسارة على الأفغان والفرس
والترك أجمعين .

وقد وضع جمال الدين يده على الداء كله حينما أدرك أن
العلاج السريع لهذه المحنة إنما يبدأ بالتوفيق بين الأمم الإسلامية
وكف المطامع والدسائس عن بلادها ، وكان يشق عليه كثيراً أن
يرى هذه الأمم كما قال «متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد»
مطاوعين المستعمرين والمشتغلين جادين في خدمتهم كأنها فريضة من
فرائض الدين . فعقد عزمته على رسالة واحدة يتحراها مدى الحياة
وهي حسم الخلاف بين الأمم الإسلامية وإيجاد الأبواب على
المستعمرين والمشتغلين حتى تنقطع المطامع التي تسول لهم العدوان
على الأمم الإسلامية وإيقاع الفتنة والشقاق بين حكوماتها وطوائفها .

وهذه هي الجامعة الإسلامية كما أرادها جمال الدين ، وفي سبيلها
رحل إلى الهند وبلاد العرب والآستانة ومصر وروسيا وفرنسا
وانجلترا وخرج من الهند مرة ، على رواية مستر بلنت المستشرق
الابرلندي ، قاصداً إلى الولايات المتحدة ليتجنس بالجنسية
الأمريكية ويستشير الأمريكيين على الانجليز والروس ، وكان قد سمع
بمساعي الأمريكيين في الشرق الأقصى فخطر له أن يستخدمها في
قضيته ، ولكنه أقام أشهراً في الولايات المتحدة على قول مستر
بلنت فعدل عن عزمه ولم يتم ما نواه من رحلته ، ولعله عرف
بالخبرة الواقعة أنه يعلق الرجاء حيث لا رجاء .

وقد خطر لجمال الدين يوماً أن يرسل تلميذه ومريده الشيخ
محمد عبده إلى السودان لتنظيم الثورة المهدية وتحويلها إلى خدمة
الجامعة الإسلامية ، وخطر له في مصر أن يسقط الخديو اسماعيل

ويقيم فيها الجمهورية ، بل خطر له أن يحرض على اسماعيل من يفتاله عسى أن يجد من خليفته توفيق مستمعا لنصائحه ووصاياه وقد توسل جمال الدين في رسالته بكل وسيلة تملكها يده فأصدر في أوربة صحيفة « العروة الوثقى » وصحيفة « ضياء الخافقين » وأنشأ في مصر محفلا ماسونيا بعيداً من سيطرة المحافل الأجنبية ، وقيل أنه ألف في مكة المكرمة جماعة « أم القرى » وهم بالسفر إلى نجد لقيادة الحركة الوهابية ، ولم يهدأ قط في حياته عن عمل مستطاع يحقق به رسالة الجامعة الإسلامية ، واتفق السلطان عبد الحميد بالعمل في الأستانة على استمالة الخديو عباس الثاني إلى تنفيذ مساعيه يوم زارها في ضيافة السلطان ، ثم أصيب بالسرطان فمات به (سنة ١٨٩٧) وحضر السلطان الاحتفال بجنائزه فلم يشيعه إلى مقره الأخير غير آحاد معدودين ، وفارق الحياة ولم تتحقق مساعيه لأنها أكبر من أن تحقها جهود جيل واحد ، غير أنه أحسن بذور البذور فلم تمت في تربتها الصالحة ، وحق ما ترجمه أن يقول أن تاريخ الشرق الاسلامي في ثوراته على الحكم المطلق وعلى مطامع الاستعمار والاستغلال ان ينفصل عن تاريخ جمال الدين .

٣ - محمد عبده

هؤلاء المصلحون المعلمون الثلاثة نشأوا كنفشاء الاخوة في أسرة واحدة : ولد السيد أحمد خان في سنة ١٨١٧ وولد السيد جمال الدين في سنة ١٨٣٩ وولد الشيخ محمد عبده في سنة ١٨٤٩ . . . وكان بينهم من التخصص على غير قصد ما يشبه توزيع الوظائف في

المهمة الواحدة ، فتولى كل منهم عمله الذى يستطيعه حيث استطاع ، ولم يكن للعالم الاسلامى غنى عن واحد منهم فى موضعه أو فى مهمته كما فرضتها عليه دواعى الإصلاح .

ولقب الشيخ محمد عبده بحق « الأستاذ الامام » . . . لأن هذا اللقب يانخص رسالته فى الإصلاح بين زميليه أحمد خان وجهال الدين .

فهو مصلح معلم كالسيد أحمد خان ، ولكنه يزيد عليه بالإمامة الدينية التى لم يتهيا لها السيد أحمد ولم يرشح نفسه لها ، بل قصر جهوده كلها على إيقاظ المسلمين وتفتيحهم إلى حاجتهم من العلم الحديث .

فالشيخ محمد عبده أستاذ إمام ، ورسالته هى التعليم والإمامة فى وقت واحد . وخوها أنه خرج من تجاربه كلها بفتيحة واحدة وهى فساد الجو السياسى من حوله ، فلم يبق له أمل فى إصلاح المسلمين بالوسائل السياسية وآمن برسالته « العلمية الدينية » كل الايمان فانصرف بعزيمته كلها إلى رفع الحجر عن العقول بأجازه الاجتهاد لمن يقدر عليه وتفسير المسائل الدينية تفسيراً يطابق العلم الحديث .

وتبدو هذه السمكيات سهلة هينة لمن يقرأها فى العصر الحاضر ، ولكنه يعرف صعوبتها — بل خطرها — إذا عرف أن القول بدوران الأرض كان يعرض القائل به لتهمة الكفر والتواطؤ مع أعداء الدين على إفساده ، وأن استخدام التلفون حرج شديد لأنه قد يكون من آلات الشيطان وأفاعيل السحرة « المتشيطنين » .

وقد بدأ الأستاذ الإمام عبث السياسة وهو يعاون السيد جمال الدين في مساعيه الأوربية ، فكان يعاود له المشورة بتركها والإقبال على تعليم المصلحين والمرشدين ، وكان يقول له حيناً بعد حين : إننا إذا علمنا عشرة وأرسلناهم في أرجاء العالم الإسلامى فعلم كل منهم عشرة من مريديه أصبح في العالم الإسلامى مائة مرشد فالف مرشد بعد ثلاثين أو أربعين سنة ؛ وذلك أوثق وأوفق من عملنا الضائع بين السياسة والأمراء . . . وكان السيد جمال الدين يستمع إليه مرة ويحتد في جوابه مرة أخرى فيقول له : إنك لمن المشتطين .

وقد بدأ الشيخ محمد عبده حياته بالتعليم بعد حصوله على درجة العالمية من الجامع الأزهر ، فألقى بعض الدروس (سنة ١٨٧٩) في دار العلوم ثم طاحت به شبهات السياسة فأخرج منها وألزم المقام بقريته « محلة نصر » بأقليم البحيرة ، ثم أفرجت عنه وزارة رياض وولت إليه الإشراف على تحرير الصحيفة الرسمية فأدركته الثورة العراقية وهو في تلك الوظيفة ، وقد اشترك في الثورة حتى أفلت العنان من يديها فأنف من خذلانها في أخرج مآزقها وأصابه ما أصاب رجالها من عقوبات السجن والنفي إلى خارج البلاد ، فأتخذ من النفي فرصة لنشر الدعوة إلى الحرية العسكرية وضاق به المقام في بيروت فلحق بأستاذه جمال الدين في باريس ، وتعاونوا معاً على إصدار صحيفة « العروة الوثقى » فلم تتم عشرين عدداً حتى ضربت حولها السدود في البلاد الإسلامية فتعذر المضى في إصدارها واختار الشيخ محمد عبده أن يشخص إلى تونس عسى أن يتسع له فيها مجال العمل لما كان بين الدولتين الفرنسية والإنجليزية يومئذ من التناؤس على اجتذاب

أقطاب المسلمين ، فلم يلبث غير قليل حتى خاب ظنه وأزمع الرحلة إلى بيروت ليقيم فيها مشغلاً بالدراسات الأدبية ، وفي هذه الفترة عكف على شرح نهج البلاغة ومقامات البديع وترجم من الفارسية رسالة أستاذه جمال الدين في الرد على الدهريين .

ثم عفى عن المنفيين فعاد إلى القاهرة وتولى القضاء قاضياً فمستشاراً بالمحكمة العليا ، وشغل في وظيفته بالقضاء الأهل أن ينظر في إصلاح المحاكم الشرعية وفي تجديد نظام التعليم بالجامع الأزهر فأشار بتأليف مجلس من المختصين يشرف على شئونه العلمية والإدارية ونذب للعمل في هذا المجلس عند تأليفه ، ثم اختير لمنصب الإفتاء فلم ينقطع في هذا المنصب عن إلقاء الدروس بالجامع الأزهر وإصلاح التعليم فيه .

واستفاضت شهرة الشيخ في العالم الإسلامي من تخوم الصين ومراكش إلى أفريقية الجنوبية ، واعتمد عليه المسلمون في استجازة ما يجوز وتحريم ما يحرم وهم بين الحضارة الحديثة وجمود الجامدين حائرون فيما يأخذون وما يدعون من أموال الدنيا والدين ، ويدل على استفاضة هذه الشهرة فتوى « الترنسفال » التي أقامت الدنيا وأقعدها عدة شهور ، لأنه أفتى فيها بتحليل طعام أهل الكتاب وليس ملابسهم ، كما أفتى بالإجازة في أمر صناديق التوفير توضيحاً للمقصود من تحريم الربا المضاعف بنص القرآن الكريم ، وقد كانت الأسئلة تتقاطر على « المفتي » من أرجاء العالم الإسلامي فيبادر إلى الإجابة عنها على ما في الجواب أحياناً من الغنى والاصطدام بجمالة الجامدين

ومنافعهم الموروثة في كل قطر من أقطار المشرق والمغرب ، ولا يخلو
من يقول أنه فارق الدنيا - وهو في الخامسة والخمسين من عمره -
وله في كل بلد إسلامي دليل يميز الطريق من فتاواه ودروسه وسيرته
التي ارفع بها مكاناً علياً من النزاهة النادرة والخلق المتين .

الناس المصلحون

وعلى الجملة ينبغي أن يقال إن هؤلاء المصلحين المعلمين قد عملوا غاية ما في الوسع للإصلاح والتنبية وإقامة القدوة المثل لمن تابعهم من المصلحين والمنهين .

إلا أن الحقيقة الواقعة تستوجب علينا أن نقول إن أعمال ثلاثة أو ثلاثين من المصلحين المعلمين لم تكن لتبلغ هذا المدى البعيد من حث العالم الإسلامي واستنهاضه لو لم يكن لهم سميع مجيب من جيشان الشعور بين المسلمين ، وإن يكن جيشاناً مبهماً يتخبط بين غواشي الظلم والظلام .

وفضل العقيدة هو الفضل الأكبر في إعداد النفوس للاستماع من المصلحين والإيمان بوجوب التغيير والاتجاه إلى وجهته القويمة ، ومن ثم وجدت في الحكومات الفاسدة نفسها عوامل اليقظة والاتجاه إلى التغيير أو الإصلاح ، فوجد في إيران وزير كبير ذاتي خان يحاول أن يجد من سلطان الشاه ناصر الدين ، ووجد في تركيا رجال كأحمد مدحت يحاولون مثل هذا مع السلطان عبد الحميد ، ووجد في مصر رجال كمحمد شريف وأحمد رياض إقبيل انفجار الثورة العربية ، ووجد في المغرب أمثال خير الدين ، ولم يكن وجودهم مصادفة ولا فلتة من الفلتات العارضة ، بل كان علامة من علامات الزمن لا بد لها من معقبات وآثار .

المحاديثيون

من أقوى الدلائل على عمق الأثر الذي تركته ضربات الاستعمار في أرجاء العالم الإسلامي هذه الظاهرة المتفككة التي تواترت في تلك الأرجاء ولما ينقض على هجوم الاستعمار جيل واحد ، وخلاصة هذه الظاهرة أن رد الفعل بعدها قد برز بكل نوع من أنواعه في تلك الأرجاء فلم يكن في العالم الإسلامي كله بلد خلائع الخلو من إحداها .

فكما توزع العالم الإسلامي دعوات المعلمين المصلحين كذلك توزع دعوات الساسة وأصحاب الطرق الصوفية ودعوات التجديد أو العودة إلى القديم الصحيح وتخليصه من شوائب البدع والخرافات ، ثم توزعته كذلك دعوات أخرى من نوع آخر وهي دعوات المهديين الذين زعموا أنهم مبعوثون على موعد وأنهم رسل الخلاص والنجاة... فظهر منهم من ظهر في الهند ، وظهر منهم من ظهر في الرقعة الوسطى من أرض فارس ، وظهر غيرهم في وادي النيل ، ومن قبل رأينا أن هذه الأقطار هي التي أخرجت العالم الإسلامي السيد أحمد خان والسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وأخرجت كذلك رواد الساسة والوزراء .

ظاهرة تدل على قوة الأثر وتدل كذلك على حياة البنية التي تستجيب لكل فعل برده الذي يناسبه في حينه ، وليست البنية

هنا إلا العقيدة التي هي مرجع تلك القوة وتلك المقاومة .
والمهديون نوع آخر من الدعاة ، ولكنه نوع له محله وأوانه
كيفما كان .

وأشهرهم في عصر الاستعمار ثلاثة : هم ميرزا علي محمد الملقب بالباب
وقد ظهر في إيران ، وميرزا غلام أحمد القادياني وقد ظهر في الهند .
ومحمد أحمد عبد الله وقد ظهر في في السودان .

والغالب على اعتقاد المؤرخين أن المهديين قوم خادعون يتعمدون
الكذب في دعوتهم ويسرون غير ما يعلنون من طالب الإصلاح
والعناية بشئون الدين .

ولكن الكذب المحض في أمثال هذه الدعوات أمر غير معقول...
والأقرب عندنا إلى المعقول في أمرهم أنهم عاشوا في فترة انتظار
متفق عليه ، وأنهم نشأوا نشأة « صوفية » في أكثر الأجيال
فاشربت نفوسهم أن يكون الرجاء المنتظر على أيديهم ، وربما ساورهم
الظن أنهم مندوبون لتحقيق الرجاء فأشفقوا أن ينكأوا عن
هذه الندبة وأقدموا خوف المخالفة وأملا في صدق الوعد مع العمل
والجهاد ، ثم طوتهم الشبكة المعقدة من هواجس ضمائرهم ومما أحاط
بهم من عقائد اتباعهم ومن ضرورات المواقف المتلاحقة التي لا يسهل
الخلاص منها ، فأسلموا أنفسهم للحوادث واعتذروا لها بحسن المقصد
وسلامة النية ، أو كان منهم من يلج في المكابرة والمغالطة لأنه لا يأمن
التراجع ولا يقدر عليه . ومنهم من يخالط الوسواس فيفعل
أفعال المجانين .

ونحسب أن الباب أشد هؤلاء ثقة بنفسه في البداية وأقلهم ثقة بها في النهاية ، ولهذا كان أبعدهم عن العقيدة السوية في الإسلام .

(١) الباب :

وأول نشأة البابية في عصر الاستعمار شيخ يسمى الحاج كاظم الرشتي الجيلاني ولد في أول القرن الثالث للهجرة (سنة ١٢٠٥) وتعلم على الشيخ أحمد الاحساني الذي ولد في البحرين وجمال في بلاد فارس وتلقى الدروس عن الفلاسفة والمتصوفة ، ودان بمذهب الحلول مع تغليب مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية .

وقد أخذ كاظم الرشتي مبادئ الفلاسفة والتصوف عن هذا الشيخ الذي قنسب إليه الفرقة « الشيخية » وتعلم من أستاذه أن المهدي المنتظر ساج في عالم الروح يوشك أن يظهر بالجسد خلافاً لاعتقاد الإمامية أنه محتجب بجسده إلى أن يحين يوم الفرج الموعود ، وكان من تلاميذ الحاج كاظم فتى يسمى على محمد يتنسك وتعاوده حالات الوجوم والغيوبة . فسمى باسم باب المهدي أو باب الدين ، وقال إن المهدي إنما يأتي إلى الدنيا بعد اجتماع الخلق على كلمة واحدة تتوافق فيها عقائد الإسلام والمسيحية واليهودية والوثنية ، وبث بين أصحابه عقيدة كعقيدة الحلول يزعم من آمن بها أن جسده يستزل إليه الروح المتشبه به من الشهداء والقديسين... وسبقه أصحابه إلى دعواه فزعموه إليه أنه تلبس بروح الإمام علي رضي الله عنه فنادى من ثم بأنه هو المهدي الموعود ، وأنه صاحب كتاب يسمى البيان هو المشار إليه في القرآن بقوله تعالى : « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان »

وتلا على الناس سوراً من هذا الوحي فعابوا عليه أخطائه النحوية
فتعلل لها بعلّة توائم دعوته التي تحمل المؤمنين بها من قيود العقائد
السالفة ، وقال إن الكلمات لما عليها الله آدم عصت كعصيانه فعاقبها الله
وقيدها بقيود الإعراب ثم أذن له أن يطلقها فهي بعد اليوم في حل
من تلك القيود . !

قال ميرزا عبد الحسين صاحب الكواكب الدرية في تاريخ
ظهور البائية والبهائية : إن حضرة الباب وضع كتاب البيان
ورتبته على تسعة عشر واحداً وقسم كل واحد إلى تسعة عشر باباً
والآن نقول : إن أبواب هذا الكتاب تكون إذن من حيث الجملة
والمجموع ثلاثمائة وواحداً وستين باباً وهذا العدد ينطبق على مجموع
أعداد حروف (كل شيء) إذا استخرجت بحساب الجمل .
وقد خصص حضرته الواحد الأول لنفسه والثمانية عشر واحداً
الباقية لكبار الصحابة لكل منهم واحداً ، ولما كان حاصل جمع أعداد
حروف (ص) إذا استخرجت بحساب الجمل ثمانية عشر لذلك
سمى أصحابه المشار إليهم حروف ص ونسب انتشار الحركة الروحية
وتفخ الحياة الإيمانية التي برزت وظهرت تحت ظل البيان إلى تلکم
الأصحاب ، ولكن حضرته لم يكمل بقلم كتابه جميع هذه الأبواب
وإنما تم كتابه آحاد ثمانية وتسعة أبواب من الواحد التاسع فقط
تاركاً كتابة البقية الباقية . ويتضح لكل من يطلع على كتاب البيان
ويتصفح ما كتبه الحضرة أن حضرته عهد بمهمة إتمام بقية الكتاب
إلى حضرة بهاء الله . وكذلك كل من طالع كتاب البيان ودرسه
يا معان وسر غور مطالبه تبين له أن الكتاب لا يرمى إلى تشريع

كامل مستقل بنفسه ولا إلى أحكام قائمة على حدة دونت لتقوم
باحتياجات أمة في دورة كاملة من دورات الزمن ، وإنما يفهم منه
أمران : الأمر الأول حل نظريات اعتقادية إسلامية ومشكلات
مهمة أصولية من مثل الرجعة والساعة والقيامة والحياة والموت
والجنة والنار ونحوها ، وغير خاف أن هذه المواضيع من حيث
التفسير والفهم كانت منذ القدم موضع مباحثات علماء الإسلام
ومجادلاتهم ومنشأ اختلافهم في الرأي . مثال ذلك أن جمهوراً فهموا
من القيامة أنها حشر الموتى بأجسادهم الأولية بعد قيامهم من
هذه الأجداث الترابية وذهب آخرون إلى تفسيرها بظهور المهدي
المنتظر واحتشاد الناس تحت لواء أمره ونيلهم الحياة الإيمانية من
الإيمان به والإيقاف بصدقه والتخلق بالأخلاق الفاضلة الإلهية ،
وكذلك اختلفوا في معنى الرجعة فذهبت قبائل إلى أنها عبارة عن
رجعة الأئمة السابقين بأجسادهم ولم تزل هذه القبائل تتصور ذلك
إلى اليوم ، وآخرون توصلوا إلى خرق حجب الظواهر وإمالة البراقع
عن وجوه الحقائق والسرائر واعتقدوا أن المغزى من الرجعة
هو رجوع الآثار والصفات التي كانت كالمعنى الذي يفهم من قول
القائل عند امتداح فتى بالشجاعة إن فلاناً رجعة رستم د وهو بطل
الفرس المشهور .

وفي هذه النبذة ما يكفي للوقوف على نهج الباب في تأسيس قواعده
وعقائده ، وهي مزيج من أسرار التصوف والتنجيم وتأويلات
الباطنية ومحاولات التوفيق بما هو أقرب إلى التلويق .

أما فرائض البايية فالصلاة عندهم ركعتان في الصباح . . . والكعبة

عندهم مسجد في شيراز ، ثم البيت الذي ولد فيه الباب بمدينة تبريز ،
والصوم شهر من آخر نزول الشمس ببرج الحوت ليوافق عيد
الفطر يوم النوروز أول الحبل ، ويجوز الزواج من اثنتين ولا يجوز
الطلاق ، وشرب الخمر والتدخين محرمان ، ولا حرج في شرب
الشاي والقهوة ، وهذه الأحكام تسرى بعدد حروف « المستغاث »
بحساب الجمل إلى ثيف وألفي سنة ، ثم يظهر بإذنه إمام آخر بعينه
النظر في جملة تلك الأحكام .

ونقل الدكتور ميرزا محمد مهدي خان في كتابه مفتاح
باب الأبواب أنه « كان من جملة دعائه امرأة فنية بارعة الجمال
متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى بأم سلمة (١) من بنات أحد المجتهدين
في العجم وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها
على خلاف حكم شريعة الإسلام وآمنت بذلك الرجل - أي الباب -
عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بقرعة العين
فلقبت بذلك . . . ولما وقعت المحاربة بين البايين وعساكر الدولة
في مازندران جيشت جيشاً قاده مكشوفة الوجه وسارت أممه طالبة
إعانتهم ، وفي أثناء الطريق قامت في الناس خطيبة وقالت :
أيها الناس ! إن أحكام الشريعة الأولى - أعني المحمدية - قد نسخت
وإن أحكام الشريعة الثانية لم تصل إلينا فنحن الآن في زمن
لا تكليف فيه شيء . . . فوقع الهرج والمرج وفعل كل من الناس
ما كان يشتهي من القباح ثم قبض عليها وألبست البرقع جبراً وحكم

(١) قال الدكتور في التعليق على هذا أن الصحيح أن اسمها زرين تاج .

عليها بأن تحرق حية ، ولكن الجملاد خنقتها قبل أن تلعب النار
بالخطب الذي أعد لإحراقها .

ويختلف في نسب الباب ، ولكنه على الأشهر ينسب إلى أب بزاز
يسمى ميرزا رضا وأم تسمى خديجة ، وكان مولده أول المحرم
سنة ٩٢٣٥ هجرية ، ومات أبوه قبل نظامه فرباه خاله ميرزا سيد علي
التاجر وعلمه الفارسية والعربية واتفق الخط. أما أتباعه فيزعمون أنه
لم يتعلم وإنما كان أمياً يكتب بإلهام من الله ، وقد شغل في صباه
 بالرياضات الصوفية وتسخير روحانيات الكواكب ، وقيل إنه كان
يصعد في بلدة أبو شهر إلى أعلا البيوت عاري الرأس ويمكث
في الشمس في الهجيرة إلى العصر حيث تبلغ الحرارة درجة اثنتين وأربعين
(سنتجراد) ثم تعثره من جراء ذلك نوبات ويعيد الكرة أياماً
على هذه الحال حتى أشفق خاله من عقى هذه الرياضات الشاقة فأرسله
إلى كربلاء أملاً في شفاؤه على أيدي الأئمة والمجاهدين ، ولكنه أمعن
هنالك في رياضياته وتراءت له الأشباح في خلواته ، فكشف أناساً
صادقوه لأنهم كانوا على رقبة الإمام الموعود ، ثم استفحل أمره
واجترأ أتباعه على نشر دعوته وتهديد من يخالفهم في معتقده ،
وهبت الثورة باسمه في زنجان ومازندران وتبريز ، وعرض أمره
على العلماء فتخرج بعضهم من الحكم بقتله لعله أن يكون مخالطاً
في عقله غير مسئول عن فعله ، وأقوى غيرهم بوجوب القتل اتقاء
الفتنة . فسجن ثم قتل (في سنة ١٨٥٠) وحدث عند إطلاق
الرصاص عليه في زعم البسابين أنه ظل واقفاً لأن الرصاص
قد أصاب قيوده ولم يصبه في مقتل ، ولكن شهود الحادث من غير

البابيين يقولون إنه مات وألقيت جثته في خندق فأكلتها السباع .
وكان الباب قد أوصى قبل اعتقاله باتباع خليفته ميرزا يحيى
الذى نعتة بصبح أزل ، فانتقل صبح أزل إلى بغداد ومعه أخوه
ميرزا حسين على الملقب بالبهاء ، ثم اختلفا فانقسمت الطائفة
إلى فرقتين تعرف إحداهما باسم الأزلية وتعرف الأخرى باسم
البهائية ، ونشط كلاهما للدعوة في البلاد الإسلامية وغيرها ولم يبق
من أتباعهما في العصر الحاضر غير القليل .

٢ - مهرى السوداء :

أشرنا فيما تقدم إلى علامات كثيرة من علامات التوقع والاستعداد
في العالم الإسلامي عند أواسط القرن التاسع عشر بعد اصطدام الشرق
بغزوات الاستعمار ، ونضيف إلى هذه العلامات علامة أخرى في
هذا الصدد نلاحظها في التجاوب السريع بين بلدان المسلمين لكل خبر
من أخبار الدعوات والحركات العامة ، وبخاصة ما كان من أخبار
الثورة والتغيير ، فلم يكده داعية البابية يلقى مهرعه حتى تسامع
بهذا المصير مسلمو الهند وإفريقية الشرقية والوسطى على التخصيص ،
وهي قديمة الصلة ببلاد إيران لا تنقطع عنها أخبارها من صدر الإسلام ،
وقد ترجع هذه الصلة إلى حقبة طويلة قبل البعثة المحمدية .

ولو كان الباب قد انتصر في معاركه مع جند الحكومة الإيرانية
لقد كان هذا الانتصار خليقاً أن يوصل الطريق على من يطمحون
إلى ادعاء المهديّة بعده ، ولكن خذلانه على تقيض ذلك قد فتح
الطريق في الهند وإفريقية ومواطن شتى لمن يطمحون إلى نصيب

خير من نصيبه ويؤمنون في سريرتهم بصلاحهم وصالح أوقاتهم
للقيام بالرسالة المهدية .

وكان أقوى من تصدى للقيام بالرسالة المهدية بعد الباب
« محمد أحمد » الذي اشتهر باسم المهدي السوداني ، ويلفت النظر
في هذا المقام أن دعوته الأولى كانت باسم الإمام الثاني عشر الذي
يترقبه الشيعة الإماميون ، وقد نشأ بين أهل الطريق وقرأ
أشراط الساعة في كتب محي الدين بن عربي وأطلع على قول ابن حجر
والسيوطي أن من هذه العلامات خروج صاحب السودان ، ولم يكن
في السودان يومئذ من يشك في اقتراب الساعة لسوء الحال وشيوع
الفساد واجترأ المفسدين على الجهر بمنكراتهم حتى اجترأ بعضهم
على زفاف الغلمان بدلا من النساء ، فلما انهزمت الدعوة المهدية
في إيران تهيأت الأذهان في البلدان الأخرى لقبول دعوة غيرها
يكتب لها النجاح ، ووافق ذلك سخطاً عاماً بين كبار الزعماء الذين
كانوا يتجرون بالنخاسة وبين العامة الذين أرهقتهم الضرائب وبين
التجار الذين كسدت مرافقهم لاضطراب المواصلات وتتابع المنازعات
بين مصر والسودان والحبشة فتهيأت العقول للإصغاء إلى دعاة
الإصلاح أو دعاة التغير كيف كان .

ويشتب المهدى إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،
ويقال إن أجداده الأقربين أقاموا بإقليم المنيا زمناً بعد مقامهم
إلى جوار القسطنطينية ، ثم انتقل بعضهم إلى بلاد النوبة ، ثم استقروا
في دنقلة ، ثم انتقل أبوه عبد الله إلى الخرطوم فعمل فيها بصناعة
السفن وتوفي بقرية كرري إلى جوار أم درمان .

وقد ولد له ابنه محمد من زوجته آمنة (سنة ١٨٤٥) وفي مكان مولده خلاف ، إلا أنه على القول الأشهر قد ولد بجزيرة لبب ومات أبوه وأمه وهو صغير .

ودرج الطفل الصغير في موطن يكثير فيه أبناء الطريق وهو يطيل التفكير في يتمه وفي المشابهة بينه وبين النبي عليه السلام باسمه واسم أبيه وأمه ، فقال إلى النسك والعبادة وحفظ القرآن ودرس الفقه وطرفا من التاريخ ، وأخذ نفسه بالرياضة الصارمة فاجتنب الملاهي وحرم على نفسه ما يستباح من غشيان مجامع الطرب والغناء وكانت صرامته هذه مشار الخلاف بينه وبين أستاذه الشيخ محمد الشريف أحد مشايخ الطريقة السمانية لأنه سمح لتلاميذه ومريديه بالغناء والرقص في الاحتفال بختان أبنائه ، فأنكر عليهم محمد أحمد هذه المجانة . . . وغضب عليه أستاذه فقارقه ولأذ بشيخ آخر من شيوخ الطريق بجزيرة أبا إلى أن استقل بالمشيخة وناهر الأربعين ووافق ذلك لقاءه للشيخ عبد الله التمايشي من المشتغلين بالتنجيم فطابق ما عنده من علامات الحروف والحساب على ظهور المهدى وتبادلا التشجيع والتعاون على بث الدعوة باسم المهدى الموعود ووزيره « صاحب الخرطوم » كما جاء في بعض النبوءات .

وبعد وقائع بينه وبين جنود الحكومة تم له الظفر بالحملة المعروفة باسم حملة هكس وهي حملة لم يكن لها نظام ولا مدد من الذخيرة والمال بل كان جنودها يجمعون جزافاً من المجندين المرفوضين في القرعة العسكرية وكانت الحكومة البريطانية تعوق مصر عن إرسال المال اللازم والعدة الضرورية لتسيير الحملة إلى كردفان ، فلم تستطع أن ترسل

لقائدها غير أربعين ألف جنيه من المائة والعشرين ألفاً التي طلبها ،
وأبرق اللورد جرانفيل من لندن إلى القاهرة في السابع من شهر مايو
سنة ١٨٨٣ يعلن أن حكومة جلالة الملكة غير مسؤولة بحال من
الأحوال عن حملة السودان التي تولتها الحكومة المصرية بأمرها
ولا هي مسؤولة عن تعيين القائد هكس أو أعماله ، ونشب الخلاف
بين قادة الحملة لقلة وسائل النقل وصعوبة التخلف في وقت واحد
بعد أن تسامح أهل السودان جميعاً بتأهب الحكومة لتجريد حملتها
منذ عدة شهور ، واستبد هكس برأيه في اختيار الطريق مع ندرة الماء
وارتياب الخبراء بأمانة الأدلاء ، فوقع الجيش في كمين بعد كمين
ثم فوجيء بضعف عدده من الدراويش وهو على غاية الجهد من العطش
والجوع والتعب فلم يفلت منه غير آحاد معدودين ، وكان عدد
الدراويش أكثر من عشرين ألفاً قتل منهم بضع مئات وبلغ القتل
من الحملة المصرية نحو عشرة آلاف .

كانت هذه الكارثة ذريعة لإكراه الحكومة المصرية على إخلاء
السودان ، فأنحصرت القوة التي رفضت الإخلاء بقيادة جوردن في
مدينة الخرطوم ثم انقطع عنها المدد تنفيذاً لسياسة الإخلاء وتمهيداً
لإعادة فتح السودان باسم جديد ، واضطرت المدينة بعد اليأس من
النجدة إلى التسليم .

وقد تقدم أن القوم عاشوا رداً من الزمن يترقبون ظهور
المهدي المنتظر ويتخيلون أنهم يلبسون حولهم أشراط الساعة من
عمرم الفساد وسوء الحال وغلبة الكفر على الإيمان ، وقد شهدوا
انتصار صاحبهم على الجيوش التي حسبوها من قبل قوة لا تغلب
فكان هذا حسبهم من دليل على صدق دعواه ، ومن بقى من دعاتهم

مشكراً لهذه الدعوى فإنما كان ينكرها لأنه يأتى بإمامة لا تقبلها
ولا تقول فى علامات المهدي بقولها ، ومنهم أتباع الميرغنية
والسنوسية والتجانية ، وبعضهم كان يستمع إلى فتاوى العلماء
خارج السودان بإنكار هذه المهدي .

ويبدو أن صاحب الدعوة قد توطدت فى نفسه الثقة برسالته
بما عاينه حوله من دلائل الإيمان به وانتظار الفلاح على يده ،
فأكثر من كتابة الكتب إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى تصديقه
وينذرهم عاقبة الكفر به ، وأشفق أن يلتقى أتباعه خارج السودان
بمن يشككهم فيه فحظر الخروج وحرم الذهاب إلى الحج وأقنعهم
بكفاية الحج إلى مقامه ، ومن أمثلة كتبه التى كان ينشر بها رسالته
وله فى منشور عام : . . . أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم
بأن الله جعل لى على المهدي علامة وهى الخال على سجدى الأيمن ،
وكذلك جعل لى علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معى
فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل
الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلتقى أحد بعداوة إلا نخذه الله . . .
هذا وقد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك فى مهديتك
فقد كفر بالله ورسوله ، كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ،
وجميع ما أخبرتكم به من خلافتى على المهدي فقد أخبرنى به
سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة فى حالة الصحة وأنا خال من
الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون ، بل متصف
بصفات العقل أقفوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فيما أمر
به والنهى عما نهى عنه وليكن فى معلومكم أنى من نسل

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى حسنى من جهة أبيه وأمه ،
وأنى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسى . . . والعلم لله إن لى نسبة
إلى الحسين ! . . . »

ولم يطل بقاء محمد أحمد بعد سقوط الخرطوم فأصابته
حمى التيفوس وتوفى صيف سنة ١٨٨٥ ، وكانت آخر كلماته
« . . . إن النبى صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله الصديق
خليفة لى وهو منى وأنا منه فأطيعوه ما أطعمونى . . . أستغفر الله » .

(٣) القاديانى :

كان من أسباب ذبوع الأخبار عن مهدي السودان فى البلاد
الآسيوية ، ولا سيما الهند والصين ، أنه هزم القسائدين هكس
وجوردون ، وكان أولهما من قواد الجيش الإنجليزى الذين اشتركوا
فى قمع الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ وثنائهما من الضباط الدوليين
الذين اشتركوا فى تدريب الجيش الصينى على النظام الحديث وقمع
الثورة على حكومة بكين .

فلما قتل هكس وجوردون فى حروبهما مع مهدي السودان
طارت الأنباء بوقائعه إلى كل مكان ، وخشيت الحكومة البريطانية عاقبة
الإيمان به ولما تهدأ عقابيل الثورة فى الهند - فكان هذا على الأرجح
باعثاً من بواعث عطفها على الحركة القاديانية الهندية عسى أن يكون
الإيمان بصاحبها ميرزا غلام أحمد صارفاً للقوم عن تصديق المهدي
السودانى ومعزراً للعقائد الحديثة التى كان يبدئها بين أتباعه وقوامها
إسقاط فريضة الجهاد بالسيف وإيجاب الجهاد بالإقناع والبرهان .

وقد كان مولد ميرزا غلام أحمد سنة ١٨٣٩ بقرية قاديان من أسرة عريقة آلت بها الحال إلى الخمول والفاقة بعد الثورة ، فتعلم في مكتب القرية وعمل في وظيفة حكومية صغيرة ، وشب وهو يسمع الأقاويل عن كرامات أبيه ومنها أنه كان يعرف المولود من أبنائه قبل أن يولد ويسميه باسمه ، وقد سمي أبناءه جميعاً بأسماء النبي وألقاب الأوصياء ، فمنهم سلطان أحمد ومحمود وبشير أحمد وولي الله ومبارك أحمد ، وبنت تسمى بعدة أسماء من أسماء نساء آل البيت .

نشأ الغلام منقبضاً عن الناس جانحاً إلى العزلة ومطالعة الأسفار القديمة من كتب الشيعة والسنة وكتب الأديان الأخرى . وقد لقي في سياحاته من أنباء بموافقة أحواله وأحوال زمنه لعلامات المهدي المنتظر وجعل من هذه العلامات خسوف القمر وكسوف الشمس وانتشار الوباء وخروجه من المشرق وسبق الدعاة الكذابين لدعوته ، ولم يقصر علامات على الكتب الإسلامية بل ذكر منها ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين من سفر أشعيا . وفي « الجاماسي » من كتب المجوس ، فلما حدث الخسوف والكسوف في شهر رمضان (سنة ١٨٩٤) ميلادية كانت هذه الآية عنده وعند أتباعه برهاناً من الله على أنه هو صاحب الزمان الموعود .

وقد زعم أنه المسيح المنتظر وألف كتاباً سماه « البراهين الأحمدية » على حقيقة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية ، وفسر ظهور المسحاء الذين يظهرون بعد الإسلام بأنهم هم الأولياء ورثة الأنبياء ، وقال أنه محدث . ولم يثبت أنه ادعى النبوة وإنما دعواه على قول الأكثرين من أتباعه أنه مجدد القرآن الرابع عشر للهجرة ، وقد جاء

في باب إزالة الأوهام « لا أدعى النبوة وما أنا إلا محدث » وقال في منشور أبريل سنة ١٨٩٧ « لعنة الله على كل من ادعى النبوة بعد محمد » .

ومدار الرسالة القاديانية كلها على التوفيق بين الأديان وتدعيم السلام بين الأمم ، وفي كلام القادياني ما يشبه القول بالحلول فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخير عند البراهمة كما يتلبس بأرواح غيرهم من الصالحين ، وقد توفي سنة ١٩٠٨ فانقسم أتباعه إلى فريقين : فريق يسمى الأحمدية وهم الذين يؤمنون بإمامته ولا يؤمنون بنبوته ، وفريق يسمى القاديانية وهم القائلون بنبوته ورجعتهم التي يقابلون بها عقيدة الإسلام في ختام النبوة بعد البعثة المحمدية أن « خاتم » التي وردت في القرآن الكريم إنما وردت بفتح التاء بمعنى الزينة . وينكرون قراءة ورش بكسر التاء متشبهين بقراءة حفص عن طريق عاصم ، ولكن الفرقة الأخرى تورد من كلامه ما يبطل دعوى النبوة على غير معنى المجاز وتستشهد بآخر كلامه في حقيقة الوحي ونصه بالعربية « . . وما عنى الله من نبوتي إلا كثرة المسألة والمخاطبة ولعنة الله على من أراد فوق ذلك أو حسب نفسه شيئاً أو أخرج عنقه من الربة النبوية ، وأن رسولنا خاتم النبيين وعليه انقطعت سلسلة المرسلين فليس من حق أحد أن يدعى النبوة بعد رسولنا المصطفى على الطريقة المستقلة وما بقي بعده إلا كثرة المسألة وهو بشرط الاتباع لا بغير متابعة . . . » .

ويبدو أن الفرقة القاديانية كانت أقرب الفرقتين إلى هوى الدولة البريطانية ، لأنها لم تكن تعارض الحكومة ولم تتورع عن اشتراط

الطاعة لها على من يدخلون في زميرتها ، وقد كتب أحدهم في كتاب فارسي باسم « تحفة شاه زاده وياز » يقول فيه وهو يدعو ولي العهد إلى الإسلام : « . . . إن هذه التحفة تقدم إليك من الجماعة التي صبرت على مصائب شتى ثلاثين سنة أو أكثر على أيدي أعدائها وذويها من جراء ولائها لجذتك الموقرة الملكة فكتوريا ثم جدك العظيم الإمبراطور السابق ادوارد السابع ثم والدك الجليل الإمبراطور الحالي ، ولم تكن قط طالبة مكافأة حكومية وما زال منهج هذه الجماعة من يوم تأسيسها أن تطيع الحكومة القائمة وتنسكب عن جميع أنواع الفتنة والفساد وأن مؤسسها عليه السلام كان وضع شرطاً من شروط المبايعة التي لا تسمح لأحد أن ينضم إليها إلا على عهد العمل بها . وهو أن تطاع الحكومة القائمة » .

ويعتذر أصحاب هذه السياسة برعاية الضرورة والتوسل بسلطان الدلالة إلى تيسير الدعوة ، ولكنها قوبلت بالنقد الشديد من أتباع القادياني أنفسهم بعد نشاط نهضة الاستقلال وقيام الدعاة إلى نصرة الخلافة ، وكان لهذا الانقسام السياسي أثره الأكبر في تفرق أتباع الطائفة إلى أكثر من فرقتين ، على كونهم جميعاً لا يزيدون على مائة ألف أو نحوها ، ولهم مع هذا التفرق إيمان وثيق بصدق دعوتهم ودأب عظيم على نشرها في العالم بمختلف اللغات .

تعقيب

أولئك المهديون الثلاثة أنماط متقاربة للدعوة المهدية في عصر الاستعمار ، يتشابهون أو يختلفون على حسب ما أحاط بهم في بلادهم من دواعي الاستعمار وموانعه ، وعلى حسب المذهب الذي توارثوه من أسلافهم والتربية التي هيأت أفسكارهم وعقائدهم ، فهم أبناء ماضيتهم وحاضرتهم في مواضع الشبه بينهم ومواضع الخلاف ، ولا يلوح لهم في الوقت الحاضر مستقبل يرتبط بمستقبل الإسلام غير ما انتهوا إليه .

ونحن كلما أمعنا في استقصاء سيرتهم وما تأثروا به من أحوال زمانهم — بدا لنا أن التاريخ يظلمهم إذا وصفهم بالدجل المتعمد وفرغ منهم على هذه الصفة ، فإنهم على الأغلب الأعم من ظواهرهم مسوقون إلى دعوتهم على الرغم منهم ، وربما انساقوا إليها وهم مؤمنون بها ثم دار بهم دولا ب الحوادث دورته التي لا فكاك منها ، فاستعصى عليهم الفكاك من وثاقه وأصبح الرجوع عن الدعوة بعد ذلك أخطر عليهم وعلى أتباعهم من المضي فيها .

يفيض العصر الذي ينشأون فيه بحوافز الترقب والأمل واليقين بالتغيير الذي لا محيص منه ، وقد تكون عوامل هذا التغيير موصوفة لديهم بارزة لهم في الصورة التي يتخيلونها كما تبرز صور السحاب لمن يحاول أن يرتق فتوقها على مثال مرسوم .

وبين هذه الهواجس والقلال تنمو النفوس القلقة المتشوفة .
فيتفق حتماً أن يكون منها من يتعلق بالغيوب ويروض عقله على
استطلاع خفاياها وتطول مناجاته لنفسه وتساؤله عن واجبه .
فيخطر له أنه مندوب لأمر جسم يروقه أن يصبح أهلاً له ويخيفه أن
يكون هو المقصود به ثم ينكل عنه خوفاً من تبعاته وأهواله ، وكلما
طالت به المناجاة والتساؤل تمكن الخاطر منه وتلبس الخلاص من
شكوكه بالمزيد من الرياضة والاستعداد ، عسى أن يلهمه الغيب سبيل
الرشاد ويجاوزه حقيقة الأمر الذي هو في ريب منه . وإذا احتجبت
عنه آيات الإلهام فترة فليس بالعجيب في هذه الحالة بين الأمل والخوف
أن يذكر فترات الخيرة التي مرت بالرسل الكرام ويحسبها من ضروب
الامتحان والتمحيص في انتظار الموعد الموقوت ، وقد يصادفه بين
هواجس هذه الخيرة من ينفضها عنه ببارقة رجاء وكلمة تشجيع فيتشبث
بها ويستصعب إهمالها ، وما أسرع النفس إلى التشبث بأمثال هذه
العلافة في أمثال هذه المآزق والأزمات .

ثم يخطو الخطوة الأولى فلا يعدم من يخطوها معه ويسبقه إلى
ما بعدها ، ثم تدفقه المصادفات تارة وتصدده تارة حتى يتوسط الطريق
وتنسد وراءه شيئاً فشيئاً منافذ الرجوع ، إن فكر في الرجوع .
ولن يلبث بعد ذلك أن يتعلق بدولاب الحوادث فتوحى إليه أمرها بحكم
الضرورة قبل أن يوحى إليها ، فإن خامره شك فلعله يحسب في هذه
المرحلة أن المصلحة في التقدم أكبر وأضمن من المصلحة في التراجع
والنكوص ، ويزعم اضميره أنه إنما يريد الخير ولا يحاسبه الله
إلا بما نواه .

على أن العبرة من هذه الحركات جميعاً أن ضجتها أعظم جداً من جدواها ، وأنها تجشم الأهم كثيراً ولا تنفعها ببعض ما تتجشم من أهوالها ومتاعبها ، وتنبلى الغاشية وقد حبطت الحركة في أول أغراضها وأضافت نحلة جديدة إلى النحل التي أرادت أن تمحوها وتدبجها في كيائها ، وقد تنشعب الحركة شعباً شتى بين أتباعها ومريديها وهي لم تتحرك أول الأمر إلا على أمل التوفيق بين النحل التي تنازعت ضمائر الناس قبلها .

ولو وضعت كل هذه الدعوات في الميزان لارجحت عليها جميعاً دعوة التعليم والتقويم وهي أقلها ضجة وأطولها أمداً وأبقاها ثمرة . . . ففى كل ما أجدناه من الدعوات ونهضات الإصلاح لم ينتفع الإسلام بمنفعة محققة أثبت وأعظم من منفعة التعليم على هدى العقيدة النيرة والخلق المسكين ، ولم يخدم الإسلام أحد في العصر الحديث كما خدمه المعلمون من طراز أحمد خان وجمال الدين ومحمد عبده ، ويشبههم في النفع بين أهل البادية دعاة السلوك الحسن والاستقامة من أصحاب الطرق المخلصين .

وخير خدمة للإسلام تجلّت لنا في ضوء بحاربه من مطلع القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين هي الخدمة التي تكفل للمسلم أن يؤمن بعقيدته ولا يتخلف عن عصره في علومه ومعارفه ومقتضيات أعماله ، - أو هي خدمة التوفيق بين الدين وعلوم التقدم ، وغاية ما نلاحظ على أساليب التوفيق أننا لا نستصوب التعجل بتفسير

الكتاب على الوجوه التي تتراءى لأول وهلة من نظريات العلم وفروض
العلماء المحدثين ، لأن النظريات تتبدل وشواهد الواقع تتراءى في كل
حقبة على غير صورتها في الحقبة التي تسبقها أو التي تليها ، ومثال ذلك
تفسير السماوات السبع بالسيارات السبع في المنظومة الشمسية ، وقد
ينكشف كما انكشف فعلا بعد سنوات أن السيارات والنجوميات عشر
ولا حصر للشهب الصغار التي تشرق وتغرب في هذا المدار .

وعرة الدعوات جميعا منذ أواسط القرن التاسع عشر أنها
تنحصر في كلمتين قال بهما رائد الهند وإمام مصر ، وهما
العلم والإيمان .

الحوادث وفنائك الاصلح في منتصف القرن العشرين

تعدد المقاييس التي يقاس بها تقدم الأمم . ويأتي في طليعتها مقياس الحرية ومقياس الحضارة ومقياس الحالة النفسية .

وبهذه المقاييس جميعا تبدو دلائل التقدم على الأمم الإسلامية عند المقابلة بين ما كانت عليه في منتصف القرن التاسع عشر وما صارت إليه في أواسط القرن العشرين . وتبدو هذه الدلائل كذلك بارزة بيضاء عند المقارنة بين ما هي عليه الآن وبين ما كانت عليه في أوائل القرن منذ خمسين سنة .

فالمسلمون الذين يعيشون في بلاد مستقلة أو شبيهة بالمستقلة . يزيدون على خمسة أضعاف المسلمين الذين يخضعون لحكم دولة أجنبية .

ومهما يكن من شأن الاستقلال الواقعي أو الشكلى فمن الغباء أن يقال إن الاستقلال كعدم الاستقلال كائنا ما كان . ومن الخطأ أن يستشهد على ذلك بخضوع الأمم المستقلة كثيراً أو قليلاً لسلطان الدول القوية بحكم الضعف أو الاضطراب .

فالنصي القاصر يخضع لوصاية وليه ، والرجل الراشد لا يفعل كل ما يريد ولا يزال في حياته الراشدة خاضعاً لذوى السلطان عليه بحكم الضعف أو الاضطراب ، ولكن لا يقال من أجل هذا أن النصي والرجل الراشد سواء لأنهما ، كليهما ، لا يعملان كل ما يريدان .

وقد خرج معظم الأمم الإسلامية من ربة السيادة الأجنبية وأصبحت لها مشيئة إلى جانب مشيئة الأقوياء . أو أصبح الأقوياء مضطرين إلى التماس الحيلة والذريعة للتوفيق بين المشيئتين . وهذه خطوة في الطريق لا بد منها قبل ما يليها من الخطوات .

أما الأمم التي لا تزال خاضعة للسيطرة الأجنبية ففي كل منها نهضة قومية ووعي متيقظ يقلق المسيطرين عليها ، وتنبئنا حوادث الماضي القريب أن السيطرة ترجع إلى الوراء مع الزمن ، ولا ترجع اليقظة لمعد المسير ولو إلى غير شوط بعيد .

• • •

في آسيا ظفرت أندونيسية باستقلالها ولا تزال أمامها مشا كلها الكثيرة ، ومنها ازدحام السكان وشيوع الأمية وحاجة الأمة إلى الخبراء الكثيرين في الإدارة وتدير الثروة وانفصال بعض أجزائها وتنازع الآراء والأحزاب على سياستها .

وقد ظفرت الباكستان بكيانها السياسي ولا تزال أمامها مشا كلها الكثيرة ، ومنها تباعد شطريها وحاجتها إلى موارد الماء في كشمير وخلافها مع الهند ومع الأفغان .

وفي الصين عشرات الملايين من المسلمين متيقظون يشعرون بخطر واحد وحقوق واحدة ، وعلى التخوم بين الصين والهند ملايين آخرون خاضعون لسلطان الدولة الروسية يخشون على ضمائرهم كما يخشون على ديارهم ومعالم أوطانهم ، وتقوم الأفغان وإيران مستقلتين إلى جانب هذه الأمم وفي كل منها كفايتها وفوق كفايتها من مشكلات السياسة والمعيشة .

ولا خطر من جميع هذه المشكلات .

ولن يجيء اليوم الذي تستريح فيه الأمم من أمثال هذه المشكلات أو تعيش فيه حقبة من الزمن بغير مشكلة كبيرة أو صغيرة .

إنما الخطر الأكبر أمة بغير إيمان وبغير معرفة ، فإذا بقي للأمة إيمانها ومعرفتها فكل ما أصابها بعد ذلك هين مأمون العاقبة بعد حين . وليس الخطر كله من الأعداء ، وليس الأمان كله من الأصدقاء أو الأبناء .

فقد يجيء الخطر على الإيمان من غلاة التجديد ، وقد يجيء الخطر على المعرفة من غلاة الجود ، وقد يتقابل هؤلاء وهؤلاء على قوة واحدة فيسرى إلى الأمة شلل لا تنفع معه معرفة ولا إيمان .

ومن وجوه الرجاء ، أو العزاء ، بين المشكلات الجسام التي تستقبلها الأمم الإسلامية أنها لا تحمل العبء كله ولا تنفرد بالعمل على دفعه أو تخفيفه ، لأن سنن الحوادث أن تأتي بالنجدة كما تأتي بالعقبة ، وأن العامل لا ييأس من مفاجآت الغيب وإن كان لا يأمن الغدرات من تلك المفاجآت .

لقد كان على أندونيسية شوط بعيد مع هولندية وشبكة الاستعمار التي تمكن لها في مستعمراتها ، ثم ابتليت هولندية باليابان فأخرجتها ، ثم ابتليت اليابان بالهزيمة فخرجت مكرهة وتركت سلاحها للتوارث في سبيل الحرية ، ثم اضطروا المنتصرون من الأمريكيين والانجليز إلى إدارة الشعوب الآسيوية ونفس بعضهم على بعض أن تخلف هولندية

على تلك الغنيمة الضخمة ، فإذا بالاستقلال يسعى إلى أندونيسية كما
سعت إليه ، ثم تبقى الكفاية لمشكلات الحكم والمعيشة وهي لا تعضل
قوماً كأبناء تلك الأمة كادوا أن يستأثروا بالتجاوة والملاحاة في
بحار الهند قبل زحف المستعمرين عليها .

وكان على الباكستان شوط بعيد مع الدولة البريطانية والكثرة
البرهمية ، ثم تغير الموقف في القارة الآسيوية بعد هزيمة اليابان وبعد
كساد التجارة البريطانية في المشرق وبعد التزاحم الجديد بين الروسيين
والأمريكيين على القارة في شرقها الأقصى . فإذا بالاستقلال يسعى إلى
الباكستان كما سعت إليه ، ثم تبقى مشكلة كشمير وتبقى بإزائها صناعة
في الهند تتوقف على الباكستان وصناعة في الباكستان تتوقف على
الهند . ومصلحة مشتركة تلجىء الجانبين إلى المصالحة ، وخطر من
جانب الصين الشيوعية يفتح الأعين هنا وهناك .

وثمة عامل جديد في سياسة الدول القوية لم يكن له خطر قبل
منتصف القرن العشرين ، وذلك هو عامل العقيدة في المجتمع .

فلم تكن دولة من دول الاستعمار تبالي شيئاً بعد غلبتها العسكرية
والسياسية على بلد من البلاد المستضعفة . ولسكنها اليوم تبالي ما يعتقد
الشعب وتعلم أن هذه العقيدة عامل هام في الترجيح بين المستعمرين من
كتلة المشرق وكتلة المغرب... وقد تعودوا المبالاة بالإسلام وما تحتويه
عقيدته من المقاومة أو المسألة المذاهب الاجتماعية ، فليست السطوة
بقوة السياسة أو بقوة السلاح هي كل ما تباليه الدول الكبرى في

منازعاتها ، وقد يخافون من هذه الخطوة أن تدفع بالمسلمين إلى جانب
وتصرفهم عن جانب ، فيبنون علاقاتهم بهم على هذا الأساس .

والفرق بين الكتلتين أن الأمريكيين والإنجليز لا يستطيعون أن
يجعلوا الأمة المسلمة أمريكية أو إنجليزية . أما الكتلة الشرقية فإذا
جعلت أمة من الأمم شيوعية لم تكثر بعد ذلك بحسبها وعقليتها ،
لأن الشيوعية تبطل الأوطان والأديان .

وفي آسيا دولتان قديمتان هما إيران وتركيا ، وكلتاها في شقة
الصدام بين الكتلتين ، يحميها هذا الصدام أن تقعا في قبضة هذه أو
تلك ، ولكنها حامية مانعة وليست بالحماية العاملة ، فلا بد من سند لها
في بنية الأمة ، ولا بد من قيام هذا السند من الإيمان والمعرفة .

ويقال اليوم إن تركيا تعود إلى الدين بعد ثورة مصطفى كمال على
تقاليدھا الدينية ، ولكن تركيا في الواقع لم تفارق الدين حتى يقال إنها
تعود إليه ، وكل ما حدث إنما هو تغيير في مراسم الحكم لم يتغلغل قط
إلى ضمير الأمة ، وقد يكون الاعتدال بين ثورة مصطفى كمال وتقاليد
الجامدين أصلح لتركيا من أيام الخلافة المتداعية وأيام الثورة
الجمالية الأولى .

أما الأمم العربية فقد وضع لها الغرب إسفيناً في صميم بنيتها يوم
أقيمت بينها دولة إسرائيل ، ولن تؤمن العقبي ما بقي فيما بينها هذا
الصدع الويل تتسلل منه المفسد والمطامع إلى جوفها .

ولكن إسرائيل على قوة الدول التي تسندها لا تهيش ولا تتمكن
في موضعها بين أمم تقاطعها وتبعد المسافة بين مواردها ومصادرها ،
وباب الأمل في هذا الجانب أن المصير لا يعدو حالة من حالتين :
إما أن تسيطر إسرائيل على أمم العرب ونهضتها ، وإما أن تهخذل دون
هذا المطلب العصي فتتهار أو تقبع في أضيق حدودها ، وأصعب هاتين
الحالتين سيطرة إسرائيل على أمم ناهضة تتقدم ولا تنكسر
على أعقابها .

والإسلام في القارة الإفريقية يشغل شواطئها على البحرين
الأبيض والأحمر وعلى المحيطين الأطلسي والهندي . فكل الشواطئ
الإفريقية يقطنها مسلمون ما خلا الجانب الغربي إلى الجنوب ، ويتخللها
المسلمون في جوف الصحراء الكبرى كما يتخللونها في أواسطها من
السودان إلى أعلى النيل .

وتنصب قوة الاستعمار كلها على القارة الإفريقية في الوقت
الحاضر ، فعلى الإسلام عبء كبير ينهض به في وجه هذا الاستعمار

ومهما يكن من تفاوت القوى المتنازعة في هذه القارة فليس
السؤال هنا : من يقدر على الغلبة ؟ بل هو من يقدر على القيام بعد
طول الصراع ؟

ونخال أن الجواب لا يقبل الخلاف ، فلن يبقى المستعمرون
موزول أبناء البلاد ، ولن يستطيع المستعمرون مهما عملوا أن يخرجوا

أبناء البلاد عن أجناسهم وعقائدهم ليدمجوهم في غمارهم إفريقيا «متغربين»
وقد تطول المسافة على الشعوب الإفريقية قبل بلوغ المرحلة
التي تخرج الاستعمار ، ولكن الاستعمار يحمل من جرائم الفناء
ما يعاون المنكوبين به على الخلاص منه ، وليس اللازم أن يتساوى
الإفريقيون والمستعمرون في العلم والثروة والحول والحيلة ، وإنما
اللازم أن يضيق المستعمرون بقهر الإفريقيين ، وقد يضيقون بهم
قبل أن يتساوى الفريقان في هذه الصفات بزمن طويل .
ومصر — في طليعة الأمم الإفريقية — تمضي قدماً إلى هذه
المرحلة وتقترب منها حقبة بعد حقبة منذ أوائل القرن العشرين . فلم
تمض من هذا القرن عشر سنوات متعاقبة دون أن تتدرج فيها من حالة
إلى حالة أفضل منها ، خرجت من السيادة العثمانية ثم خرجت من
الحماية البريطانية ثم تخلصت من حكم الملكية الرثة التي صار بها الزمن
إلى أسوأ أطوارها في عهد فاروق ربيب الفساد ، ابن أحمد فؤاد صنيعه
الحماية ، ابن إسماعيل رائد الخراب والاحتلال ، وإذا طردت مراحلها
عشر سنوات بعد عشر سنوات على هذه الخطى فليس الرجاء في مرحلتها
التي تقود فيها القارة الإفريقية بعيد .

وعلى شواطئ البحرين الأبيض والأحمر أمم من هذه القارة
تليقظ وتتحنن ويوشك أن تبلغ المرحلة التي تعنت فيها الاستعمار كما
يعنتها ، ومن آمالها وحدة المغرب ووحدة وادي النيل ، وأيا كان مآل
هذه الآمال في عالم السياسة فمناط الأمر كله أن يتم لها حظ الأمم المستقلة
في المعرفة والكرامة ، وكل وضع من أوضاع السياسة بعد ذلك
مرضى ومقبول .

في نظر الغرب

منذ القرن الأول للهجرة لم يعرف العالم حقبة من حقب التاريخ خلا فيها الغرب من يهتمون بالإسلام على نحو من الانحاء ، ولكن الذي يعنيننا في هذه العجالة هو اهتمام الغرب بالإسلام في عصر الاستعمار . وقد كان على الأغلب اهتماماً بروده الباحثون من وجهة النظر العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية ، فلم يهتم الغرب بالإسلام قط من وجهة نظر عامة أو من وجهة نظر علمية في القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر . وإنما التفت الغربيون إلى دراسة الإسلام من هذه الوجهة — وجهة النظر العلمية — منذ أوائل القرن العشرين . وهي مع هذا لا تخلو من غرض وإن تخفى الغرض فيها أحياناً وراء نقاب .

فن أواخر القرن التاسع عشر إلى اليوم تقوم الجامعات والمعاهد في هولادة وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة لدراسة أحوال المسلمين وأسرار العقيدة الإسلامية على أضواء العلم الحديث ، وينشئ بعض الجامعات كراسي لهذه الدراسة أو قاعات لإلقاء المحاضرات وانتداب المختصين لإلقاء سلاسل من هذه المحاضرات سواء كانوا من الأساتذة فيها أو ممن يعلنون في الجامعات الأخرى .

وستجمل في هذا الفصل أقوالاً متفرقة من مباحث المختصين الذين

صوِّروا الإسلام للغرب كما فهموه ، فإننا إذا عرفنا كيف يفهموننا عرفنا كيف يكون موقفهم منا وكيف يكون موقفنا منهم ، ولو كانت المحاولة « علمية » تدور عليها دراسات علماء .

أفتتحت جامعة شيكاغو قاعة محاضراتها الإسلامية منذ نحو خمسين سنة (١٩٠٦) فحضر المحاضر الأول — دنكان بلاك مكيدونالد — أهم الموضوعات التي يمكن أن يدور عليها البحث في ثلاثة ، وهي الشخصية الحمديّة ، ومدارس التصوف ، وأطوار الأمم الإسلامية في حركة التجديد .

وصفوة ما انتهى إليه في هذه الموضوعات الثلاثة أن الشخصية الحمديّة لا تزال بعد أربعة عشر قرناً مصدر المدد المتصل في تقوية المسلم ، وأن الصوفية قد خلقت منفصلاً للعقيدة الفردية التي يدين بها المسلم المستقل بتفكيره واعتقاده عن سلطان الشيوخ وسلطان الجماهير ، وأن أطوار المسلمين تختلف اختلافاً لا بد منه بين أناس ينتمون إلى كل جنس وكل أصل من الأصول البشرية ، ولكن الإسلام قد أوجد بينهم أخوة عامة قل أن يوجد لها نظير في أتباع الكنيسة الواحدة ، وقد طُبعت هذه المحاضرات بعنوان « الموقف الديني والحياة الدينية في الإسلام » (١) .

ومن الدارسين لموقف الإسلام في القرن العشرين المؤرخ الكبير

The Religious Attitude and Life in Islam (١)
by Macdonald

أرنولد توينبي Toynbee في محاضراته عن « العالم والغرب » التي أقيمت سنة ١٩٥٢ وفي محاضرات أخرى عن حركة التجديد التي سماها بالهيرودية وحركة التجديد المقابلة لها التي سماها بالآسية .

وعند توينبي أن المسلم يواجه الغرب اليوم كما واجه الإسرائيلي حضارة رومة واليونان قبل ألفي سنة ، ولا يعني بذلك أنه جامد على أساليب ذلك العصر بل يعني به أن من المسلمين من يقاوم الحضارة الأوربية بالاعتباس منها كما فعل هيرود في عصر السيد المسيح ، ومنهم من يقاومها بالمحافظة الشديدة والإصرار على القديم بنفسه وحرقه .

وقد ذكر الانقلاب التركي وما تلاه من الحركة الكمالية نحو الغرب ، فقال إن التجديد التركي قد تطور هذا التطور لأن التجديد كله قد بدأ من ناحية العسكريين على أثر الهزائم المتوالية التي منيت بها الدولة العثمانية فاتخذ صبغة التنفيذ العسكري بعد الهزيمة الأخيرة في الحرب العالمية الأولى . ثم قال ما أخواه أن النظام العسكري قد اقترن بالنظام النيابي الذي علقته جذوره على ما يظهر بالترية الإسلامية ، وفضل العقلية الإسلامية على العقلية الأوربية في أخوة الدين . فإنها في هذا العصر الذي تقاربت فيه المسافات قينة أن تحشد الإسلام صفاً واحداً أمام غزوات الشيوعيين ، وقد نوه بالرسالة التي تؤدبها اللغة العربية في هذا الموقف وهي لفظة الكتابة على اختلاف اللهجات بين مراکش وإيران ومستقط وزنجبار .

وصنف الأستاذ جب Gibb أستاذ العربية بجامعة أكسفورد
عدة رسائل تدور بالتفصيل أو بالإجمال على هذا الموضوع .

وملاحظته الأولى هي أن التجديد في الإسلام يبدأ من جانب
« العلمانيين » أو الدنيويين خلافاً لتجديد الغرب الذي يتولاه رجاله
الدين ، وأن المسلمين العصريين يعتمدون على مكانة الإمام محمد عبده
لتسوية جهودهم التي لا يرضى عنها الجامدون كلما حاولوا التقريب
بين الإسلام والحضارة الحديثة ، وتعليل ذلك عنده أن المسلم المتعلم
على المنهج الأوربي هو الذي يعرف ما يستفاد من علوم الغرب
وحضارته ، وهو منهج لم يفتح أمام الشيوخ قبل الجيل الجديد .

ويرى الأستاذ جب أن التجديد ينتشر في العواصم وقلما يسرى
إلى الأقاليم النائية في جوف البلاد .

ويلاحظ أن المجددين في مصر قد يتأولون الأحاديث النبوية
ولكنهم لا يحترئون كما اجترأ بعض مجدي الهند على المناقشة في
التنزيل ولا سيما المناقشة حول تنزيل القرآن بلفظه أو بمعناه ، ولم
يعلل الأستاذ جب هذا الاختلاف ولم يذكر له أمثلة كثيرة في الهند
أو غيرها ، ولكننا نظن أن خاطر التنزيل بالمعنى إنما يخطر لمن
يتعودون أن يفهموا القرآن بمعناه أو يترجمون هذا المعنى مع قراءته
بالحروف العربية ، وقليل جداً مع هذا من يعلق التجديد بهذا
الضرب من التأويل .

• • •

وعن ألفوا عن الإسلام في الهند خاصة الأستاذ ولورد كاتويل

سميت Wolfred Cantwell Smith من التواريخ الإسلامية
بجامعة عليجيرة .

وأهم ما لاحظناه ان دعاة التجديد يشتمون بإثبات « قابلية الإسلام ،
للتحضير والتدين » ، ويشيرون بفضله على حضارة الغرب من عهد
سجوله الأندلس إلى عهد الحروب الصليبية . وأن بعض المجتهدين
- وسمي منهم أبا اللال المودودي - يؤمنون بأن الإسلام نظام
الكون ، وإن العالم المادي يمشي على نظامه فيصح أن يقال عن الشمس
والقمر والكواكب أنها كائنات مسلة ، بل يصح أن يقال عن تكوين
الملحد نفسه إنه في « كيانه الجسدي » يتبع نظام الخلق فيتبع من ثمه
أحكام الإسلام .

وينزع الأستاذ سميت إلى التفسيرات الاقتصادية في عقائد
الطبقات ، فيقول إن « الشخصية النبوية » هي مدار العقيدة
حيث يلتبس المسلم في العصر الحاضر « مثلاً أعلى » لمسلكه وأدبه
وقواعده خلقه ، وإن المساس بالنبي عليه السلام يثير المسلم أشد من
ثورته على من يمس الربوبية ، ولا يتصد بذلك أن مقام النبوة أعظم
عنده من مقام الإله فهذا ممتنع كل الامتناع في الإسلام ، ولكنه
قد تعود أن يسمع بالملحدين المنكرين لوجود الإله ولم يتعود أن
يواجه أحد بالقدح في نبيه ولو لم يكن من المتدينين بدينه .
وهذه الحركة الواسعة قد عرفت خاصة بتعظيم شخص الرسول
صلوات الله عليه حتى سميت باسم حركة « السيرة » وأصبح قوامها
الإعجاب والافتداء بسيرة النبي في حياته الخاصة والعمامة ،
ومننا يستطرد الأستاذ إلى تعليقاته الاقتصادية فيقول إن الطبقة الوسطى

في جميع الأمم « فردية » أو معنية بالشخصية الفردية ، ومن ثم اتجه
الشعور الديني عند المتعلمين - ومعظمهم من الطبقة الوسطى -
إلى « شخصية » تلك إعجابهم وتقدير المتدين بجدارتها للقدوة والأمانة
فكانت « الشخصية المحمدية » هي مدار هذا الشعور وقبلة هذا التفكير .

وليس من غرضنا أن نطيل التعقيب خلال تلخيص الآراء
الغربية عن الإسلام ، ولكننا نحسب أن الخطأ هنا لا يحتاج
إلى إسهاب في التعقيب عليه ، لأن الاهتمام بذوات الأولياء والقديسين
يشيع في كل أمة بين العامة وسواد الناس أشد من شيوعه بين الميسورين
المتوسطين ممن يسميهم أصحاب التفسير الاقتصادي بالبرجوازيين .
ونرى أن تعظيم النبي عام بين المسلمين في هذا العصر . وأن كتابة
السيرة المحمدية عامة كذلك بينهم في كل أمة . فلا عجب أن تعم البلاد
التي كان للشخصية الإنسانية فيها مكانة بارزة في كل عقيدة من أقدم
العصور ، وهذا عدا ما هو مأثور عن طبيعة الإنسان إذ تدرك
القداسة متمثلة في صورة واضحة قبل أن تتمثلها في عالم التجريد .

وبين أحدث الكتب عن الإسلام كتاب الأستاذ تريتون Tritton
أستاذ الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن ، وقد اختار للإسلام
المعاصر مثالين أحدهما هندي وهو الشاعر الصوفي محمد إقبال ،
والآخر مصري وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهو يحاول
أن يتفقد إلى طبيعة إدراك الماضي والحاضر والقديم والجديد
في ذهن إقبال فيقول إن الزمن المطلق عنده كل عضوي شامل

لا نتركه خلفنا بل هو يتحرك معنا ويعمل في حاضرتنا . ثم يقول
إن الإسلام يعطى كلا من العالمين - الدنيا والآخرة - حقهما ،
وفي وسع المسلم العمري أن يعيد النظر في الإسلام كله دون أن
ينقطع عن الماضي ، وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة
لأن باب الاجتهاد مفتوح لا يزال .

قال : وقد أدى ضغط الآراء الغربية إلى تغيير واحد في التفكير
الإسلامي ، فإن المسلمين في القرون الوسطى كانوا يتجاهلون قواعد
التفكير الأخرى فأصبحوا اليوم معنيين بالرد على وجوه الاعتراض
التي تأتي من غيرهم ، وهم يجتهدون ليثبتوا أن الإنسانية الصادقة
والآداب القويمة والعقل السليم تلغى أرفع تعبيراتها في شريعة الإسلام
وأحكامه ، ويسلمون أن ديانتهم اليوم ليست على ما يحبون وأن
الإصلاح ضرورة لا محيص عنها ولسكنهم يصرون على أن الإسلام
دون غيره هو الذي يصلح لمطالب النوع الإنساني ، فقد تغيرت
الأحوال ووجب أن تتغير معها النظرة إلى الديانة . وقد كان
أثر الغزالي في الشيخ محمد عبده قوياً يبدو واضحاً في فهم الدين على أنه
عقيدة باطنة حيوية من شؤون السريرة ، وأن الشائخ الخارجية
ثانوية مضافة إليها ، وقد أخذت طائفة من الذين يدعون على العموم
تلاميذ الشيخ تنقاد لمذهب الحنابلة فتجمعت من ذلك دعوة إلى رفض
البدع المستحدثة والعود إلى سلامة العقيدة الماضية وتضمنت
هذه الدعوة برامج إصلاح في الشؤون الدينية والاجتماعية والاقتصادية
تثبت قابلية الإسلام للتدين به في الأحوال الحاضرة
وهؤلاء التلاميذ يتجهون إلى أهداف مختلفة بعضها وطني قومي

وبعضها مدرسي ينظر إلى الحرية العقلية ، وبعضها يقدم الإصلاح
الديني ويعتبره مبدأ لكل إصلاح ، ومنهم من يصبح بانقياده للزعة
الحنبلية محافظاً في بعض الأمور أشد من المحافظين . وتنصل الصبغة
الجزالية عن حياتهم ... وإنهم ليعتقدون أنهم معتدلون يتوسطون
بين البساطة التي ترجع بقوتها كلها إلى التسليم الأعمى في طوائف
الدهماء وبين المتطرفين من دعاة التقدم الذين يمنحون إلى الحرية
العقلية المطلقة والاتجاه إلى الحضارة العصرية ونظم الحكم الحديث
والشريعة الوضعية ، ويؤكدون أن الإسلام إذا فسر كما يفسرونه
يتكفل بالحل الوحيد لمشكلات المجتمع والسياسة والدين . . .

وانتقل تربتون إلى مسألة الخلافة فقال : « إن إلغاء الترك للخلافة
صدم العالم الإسلامي وإن كانت الخلافة قد صارت منذ زمن بعيد
اسماً على غير مسمى ، ولكنها كانت عندهم ذات قيمة عاطفية ،
ومنهم من يؤثر إيجاد الخلافة بأية صبغة روحية خادمة للشريعة
لا حاكمة مهيمنة عليه ، وإنما وظيفته أن يراقب القيام بحكم الشرع
ولا يستطيع ذلك بغير سلطان وراءه ، ومثل هذا الخليفة أدنى إلى أن
يكون كالإمام عند الشيعة ، إلا أنه لم توجد قط ولا توجد الآن
أداة معترف بها تتولى اختياره ، وأقرب ما يكون إلى هذه الأداة
فتاوى الفقهاء بغير صفة رسمية ، وهم لا يعينون بل يرتقون إلى
مكائنتهم بالعزلة ووجاهة الشخصية كأنهم المثل المحسوس لاتفاق الجماعة .
ويعتبر الوطنيون الذين يعتقدون أن خلاص الإسلام مرهون بإقامة
الحكومات المستقلة أناساً من الوجهة النظرية مقترفين لخطيئة التفرقة
بين صفوف الجماعة ، ولكن الحكومات المنفصلة تد وجدت قديماً

دون أن تفهم وحدة الجماعة وليس ما يمنع أن يعود الأمر كما بدأ
ويومئذ يصدق على عالم السياسة ما روى عن النبي حيث يقول :
إن الاختلاف بين أمتي رحمة .

..... وربما تأثر المسلمون بإجلال النصارى للمسيح فرفعوا
مقام النبي إلى أوج المثل الأعلى وجعلوا الدين محاكاة له في سيرته .
ولم تزل نظرة المسلمين إلى نبي الإسلام تنشوع من حقبة إلى أخرى .
ولكن النبي نفسه كان يقول إنه إنما هو رسول وإسان من البشر
وليس في يديه أن يصنع المعجزات .

ونختم تريتون هذا الفصل قائلاً إن الفجوة بين مدرسة التجديد
ومدرسة المحافظة لا تزال على اتساع لا يأذن بالمراجعة التي دعا إليها
محمد إقبال ، وكلتاها مع هذا قد تشوب إلى القرآن الذي يوحى إلى
المدرستين أن الله ليس كمثل شيء ، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد .

واشترك نحو عشرة من الباحثين الغربيين والشرقيين في دراسات
متفرقة عن الثقافة والمجتمع في أسم الشرق الأدنى Near Eastern
Culture and Society فقال أحدهم الأستاذ عبد الخالق عدنان
أديوار — وهو تركي — إن حركة التجديد العصرية بدأت بدعوة
ضيا شوق آلب المسماة بحركة « بني مجموعة » أو الجماعة الجديدة ،
وغايتها أن تنشئ في الإسلام توفيقاً كالتوفيق بين المسيحية والحضارة
العصرية على مبادئ اللوثرية ، ولكن غلظة شوق آلب كانت على
الأغلب غلظة لغوية في الترجمة ، إذ كان من سوء حظها أنه ترجم كلمة

الديوى أو العلمانى Laic باللاتينى فنفر المحافظون من مذهبه على
اعتباره زندقة مناقضة للدين ، فى حين أن الكلمة لا تعنى اللادينية بل
تعنى « غير الكهنوتية » . . ولو أنها ترجمت بهذا المعنى لما نفر منها
المسلمون لأنهم مسلمون أن ديارتهم خلو من سلطان الكهنوت ، ثم
جاء الاندفاع فى سبيل « التغريب » فبلغ من سورتته حداً أخرجه من
الدعوة الفسكرية إلى حالة تشبه الحتمية الحكومية فى سبيل « اللادينية »
وانقلبت الآية من تعصب قديم إلى تعصب جديد لا يسمح بالتمحيص
وحرية المناقشة .

ولخص حبيب أمين الكوراني حركات التجديد فى ثلاث دعوات .
كبى هى دعوة جمال الدين المنادى بالجامعة الإسلامية على أساس
التقريب بين الإسلام والعلم ودعوة الوهابيين على أساس العودة إلى
السلف الأول ودعوة الشيخ محمد عبده على أساس العمل بمقتضيات
العصر كما يسوغها التفسير الحديث لأحكام الإسلام .

وتكلم كويلر يونج Cuyler Young عن ثورة السخط فى إيران
على المسادية والإباحية وعزاها إلى سوء المعيشة الديوى لا إلى سوء
العقيدة الدينية ، وقال إن تحسين المعيشة ونشر التعليم خير علاج
للمشكلة النفسية مع تدليل صعوبة اللغة المختلفة بين الأقاليم .

ومن الكتب التى درست الإسلام دراسة علمية على اتصال
بمساعى المبشرين كتاب قنطرة إلى الإسلام Bridge to Islam
لصاحبه ارنج بتمان Erich Bethmann وكتاب طوالع الإسلام
The Prospects of Islam لصاحبه لورنس براون Laurence
Browne

أما الأول فيصرح بإخفاق التبشير وينعى على الحضارة الغربية أنها نفرت المسلمين من المسيحية ، ويشدد في نقد الروايات السيمية لأنها أدخلت في روع المسلم الشرق أنها تمثل حياة الأمم المسيحية فظفروا إليها نظرة طالب التسلية ولم ينظروا إليها نظرة طالب الإصلاح .

وكأننا نخشى من أنصار التبشير إغراضاً عن المعرفة فلام الدين ينصحون بالتحجب إلى الشرق من طريق التعليم والإحسان والتطبيب ، وقال إن الذهن الشرقى مطبوع على التفكير الدينى « الشيولوجى » فهو لا يفهم الإصلاح على غير هذه القاعدة وما لم يكن هناك حافظ دينى فالأمر عنده من الشواغل العرضية التى لا تستحق الجهد ومحاولة التبديل وأنه لرأى فى الحق جد عجيب ، لأنه رأى الذى ينقلب على صاحبه ويقنع أنصار التبشير بضياح المسعى وخيبة الرجاء فى كل تغيير يتوقف على تغيير العقيدة أو تغيير « الذهن » بما اشتمل عليه .

وأما لورنس براون فمحاولته كلها متجهة إلى تكذيب القول بعقم المساعى التى تبذل فى « تبشير المسلمين وهو لا ينكر أن المسلمين الذين يصبأون عن دينهم جد قليلين ، ولكنه يرى أن المسألة هنا مسألة الطبيعة لا مسألة العقيدة ، وأن أبناء الطبقات المسورة من المسلمين كأبناء هذه الطبقات فى جميع الملل والنحل ، قوم قد استقروا على عاداتهم الاجتماعية وعلاقاتهم العائلية فلا مطمح فى تحويلهم عن هذه العادات أو قطعهم لهذه العلاقات . ولكن المطمح كبير فى الطبقات البائسة كما ظهر من نتائج التبشير بين الهنود المحرومين ، وكما ظهر فى رأيه بين المنتصرين الهنود الذين يرجح

اتجاههم في الأصل إلى أجداد كانوا يديشون بنحلة من نحل الإسلام .

وقد ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الإسلام والغرب ثم ترجم إلى العربية بإسم الإسلام في نظر الغرب ونشر منذ شهور قليلة ، وقام بترجمته الدكتور اسحق موسى الحسيني من فلسطين .

يقول الأستاذ « فيليب حتى » إن الطرفين من المحافظين والجديدين يتأعدان وبينهما جماعة وسطى « تواجه عملية اختيار دائم » يتيسر في المسائل الفنية والعلمية ويتحسر في مسائل المجتمع ومشكلات المعيشة أو المشكلات الاقتصادية ، ويقول إن المتفرنجين من الترك قد غيروا لباس الرأس ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا ما في داخل الرأس بمجرد لبس القبعة وخلع الطربوش ، ويختتم كلمته قائلاً إن الدول العربية ليست جزءاً من آسيا وعلى الغرب أن يقتنع تلك الدول التي ترغب في توطيد التفاهم مع الغرب أنها تناسب إلى تلك الثقافة . . . أي إلى الثقافة الغربية ! .

ويسهب الدكتور بايرد دودج المدير السابق للجامعة الأمريكية في إيراد الأمثلة من تفسيرات الشيخ محمد عبده على المطابقة بين الإسلام والعلم الحديث ، ومن مسائل العلم الحديث التي أشار إليها مسألة التطور والجراثيم ومسائل الاقتصاد التي تتناول المعاملة بالربا وما إليها ، ولكنه يقول إن الناشئة تنفذ فرائض دينها « ويلوح لي أن هوليوود قد أثرت في الجيل الحاضر من المسلمين أكثر من تأثير مدارسهم الدينية » .

ثم يقول : « واليوم وقد أصبحت القومية ذات الصبغة المادية

عنصر اقويا في الفكر الإسلامى والمجتمع ، وهذا يؤدي بالطبع إلى
مناهضة فكرة الوحدة الإسلامية أو الخلافة وكون الإسلام أخوة
منظمة . فالقومية قد حلت محل المظهر الدينى للوحدة الإسلامية إلى
حد كبير ، وغنى عن البيان أن الشبان المسلمين الذين لا يبالون بالإسلام
باعتباره نظاماً عظيماً هم الذين يغلب عليهم اعتناق الشيوعية

وزبدة كل هذه الآراء ، ما كان منها لحض العلم أو ما كان منها
منظوراً فيه إلى التبشير والسياسة . أن الغربى مشغول بأمر الإسلام
شغلان من يشعر بيقظته ويتوقب ما وراء هذه اليقظة فلا يخرجها
لحظة من حسابه . وأهم ما يهمه أن يعلم كيف يقف الإسلام غداً من
مجاميع الأمم الغربية والشرقية ، وكيف يكون مسلكه إذا التحمت
المعسكرات ثم افرقت عن هزيمة هذا وانتصار ذاك .

ويقابل هذه النظرة ، أو هذه النظرات من الغرب ، نظرة
أو نظرات مثلاً من جانب المجموعة الأعمية التى تسمى بالكتابة
الشرقية . وتدل نظراتها جميعاً على تناقض غير مطردى وجهته .
فيرحبون حيناً بنشاط القوميات لأنها تفرق بين المسلمين فى البقاع
المتقاربة ويرحبون حيناً آخر بنشاط الوحدة الإسلامية لأنهم يخشون
العصية القومية ولا يأسون من تفسير الدين بما يوافق دعوتهم
الاجتماعية .

وإذا صرفنا النظر عن « اهتمام البواعث » أو عن الشغلان الذى
يبحث إليه حب المعرفة وحب الانتفاع بهذه المعرفة فى توجيه
السياسات وتقرير المواقف الدولية ، فالحقيقة البينة أن الاهتمام شامل

لجماهير الأقاليم غير مقصور على معاهد العلم ومراجع السياسة ،
وإحدى ظواهر هذا الاهتمام شيوع الطباعات الشعبية من ترجمة القرآن
الكريم . وأبلغ من دلالة هذا الشيوع أن يقول رجل من رجال
الدين وهو يقدم المختارات من آي القرآن أنه إذا لم يكن كتاباً فهو
صوت قوى حي Strong Living Voice . . . وهو غاية ما ينتظر
من ينكر الكتاب (١) .

(١) من مجموعة الكتب المقدسة في العالم للنس بوكيه:

Sacred Books of The World by Bouquet

آسيا وإفريقيا

وكل بحث في مستقبل المسلمين يستتبع البحث في مستقبل القارتين آسيا وإفريقية على الخصوص ، لأن تسعة أعشار المسلمين يسكنون هاتين القارتين ، وحولهما تحوم اليوم مطامع الاستعمار والاستغلال والتبشير .

وجملة ما يقال في آسيا أن شعوبها أضخم من أن تبذل في بنية شعب آخر ، وجملة ما يقال في إفريقية أنها أبعد أصلا من أن تندمج في الغرب وهي قائمة على تربتها .

إنما ينظر في هذه وتلك إلى عاقبة السيطرة الثقافية ، ولا نعي بالسيطرة الثقافية سيطرة العلم الحديث ، فإن الأمم التي تقدم في العلم الحديث لا تقع تحت سيطرة أمة من جراء ذلك ، وقد تغلب عليها على السيطرة الأجنبية إن كانت واقعة في قبضتها .

وإنما نعي بالسيطرة الثقافية سيطرة العقيدة من جانب المذاهب الاجتماعية أو من جانب التبشير .

إن الدول الكبرى التي تتجاذب سياسة العالم هي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وروسيا الشيوعية .

والظاهر أن سياسة بريطانيا في القرن العشرين أن تراجع عن آسيا ، وعن الشرق الأقصى خاصة ، وترك ميدان السباق فيه

لروس والأمريكيين ، ثم تلوذ بمفترق الطرق بين القارات الثلاث في آسيا الغربية ، أى في بلاد العرب التى تمتد من العراق إلى البحرين الأبيض والأحمر .

أما السيطرة الروسية فهى تقوم على نشر الشيوعية . وهى مذهب لا يوافق الإسلام فى أساسه ولكن الإسلام يغنى عنه إذا اتبع المسلمون قواعد المساواة والإنصاف وعملوا بأصول دينهم فى التوسط بين التهاك على الدنيا والإعراض عنها ، وينبغى أن نذكر فى هذا المقام أن بلاد الروس وما جاورها هى قطعة من أوروبة أخفتها آسيا من زمن غير بعيد ، وقد يحدث فى المستقبل تكرار لهذه الظاهرة على صورة أخرى ويكون للإسلام شأن كبير فى هذا التكرار .

وتتسابق الدولتان الروسية والأمريكية على المناجم وينابيع النفط ونقط الاستحكام فى هذه القارة الواسعة ، ومآل كل ذلك حتما إلى أبناء البلاد لأن حبل الزمن أطول من حبل المال وحبال السياسة ، وذلك على شرط واحد وهو الاحتفاظ بكيان الأمة وقوامها . وليس فى آسيا قوة روحية أقدر من الإسلام على حفظ الكيان والقوام للأمة التى تؤمن بدينه .

أما بلاد العرب حيث تتراجع الدولة البريطانية فقد أحيطت بحلقات من المشيخات والسلطنات تتعاقد معها بريطانيا على ضروب من الحماية المقنعة . وتحسب من وراء ذلك حساب المواصلات وآبار النفط ومواضع الاستحكام العسكرى فى حالة الحرب العالمية ولكنها لا تهمل حساب التبشير ولا تنكر مسعاه فى حمايتها وهذه عبارة فى سلسلة السيطرة العالمية تدل على كثير .

يقول هارول ستورم في كتابه إلى أين يا جزيرة العرب (١) :-
« إن قبائل الجبال وراء ظفار - وهم من سلالة مخالفة كل المخالفة -
يستخدم لهجات غير عربية كالشعرية والمهرية والبرطهارية
والخرسوسية ، وكل لهجة من هذه اللهجات لا يفهمها المتكلمون
باللهجات الأخرى ، وقد تمكن العالم اللغوي الألماني الدكتور
مكسميليان بثر Bethner من رسم اللهجتين الشعرية والمهرية بالكتابة
وهما على ما يلوح لي على قرابة من إحدى اللغات الهندية حيث تدل
بعض الروايات على هجرة سابقة من الهند إلى ظفار ولا تزال ثمة عادات
قريبة من عادات الهنود ، وقد اضطررت إلى استخدام مترجم بين
هذه القبائل حين عشت في بلادها ، وتبين لي من صعوبة اللغة أن العمل
بينها - أي عمل التبشير - عسير .

« ولما كانت ظفار على بعد خمسمائة ميل من مسقط تحت سيادة
سلطانها فكل محاولة لتكوين العمل هنا تستلزم لا محالة رجوعاً
إلى العمل الذي تأسس في مسقط نفسها ، ويدعو موقف السلطان
الودي في الوقت الحاضر إلى الأمل في الاتساع بهذه الفرصة
لإنجاز شيء . إذ تنتقل بعثات التبشير بغير عائق في عمان ويرجى من
تعزيز مركز مسقط مزيد من العمل ، وهناك في داخل عمان قبائل
لا حكم عليها للسلطان نجحت بعثات مسقط في حمل رسالة الإنجيل إليها
على نطاق أوسع مما تيسر قبل الآن في أي مكان . »

(١) Whither Arabia by Harold Storm . .

من سلسلة World Dominion Survey Series

أما القارة الإفريقية فقد أحيطت كذلك بحلقات من الجهات الأربع
تسيطر عليها الدولة البريطانية ، وتكاد المصنفات الكثيرة عن هذه القارة
أن تجمع على اعتبارها في عالم الاستعمار « حظيرة خاصة » بريطانية
العظمى ، وأحد هذه المصنفات صريح بهذا المعنى في عنوانه وهو « إفريقيا
إمبراطورية بريطانيا الثالثة Africa . Britain's third Empire »
من تأليف جورج پادمور Padmore .

وقد ظهر باللغة الإنجليزية في السنوات الأخيرة أكثر من
مائة كتاب عن القارة الإفريقية ، وبعض عناوينها يتم على مبلغ الأمل
والخدر من هذه الجهة التي أحاط بها الظلام إلى أوائل القرن العشرين .
من عناوين هذه الكتب عنوان « الأمل في إفريقيا » لمؤلفه
آلبورت ، وعنوان « إفريقيا الغربية الجديدة » لأربعة مؤلفين ،
وعنوان « الإفريق اليوم وغداً » لمؤلفه ديديرنج وسترمان ، وعنوان
قضية الحرية الإفريقية » لمؤلفه جويس كاري ، وعنوان « إفريقيا
تنهض » لمؤلفه . و . م . مكميلان ، وعنوان « قارة الغد » لمؤلفه
بطرس بن ولوسي ستريث وهكذا وهكذا عشرات من
التصانيف الجديدة تتلوها عشرات .

وما من كتاب من هذه الكتب خلا من ذكر الإسلام والتحدث
عن سهولة انتشاره بين الشعوب الإفريقية ، ونجزي بنماذج من هذه
الإشارات للدلالة على السياسة التي قد توحىها معلومات القوم عن أثر
هذا الدين في مستقبل الإفريقيين .

يضيف وسترمان دين الإسلام وصفاً غريباً يخلل به قابلية الشعوب

الفطرية للإصغاء إلى دعوته ، فيقول عنه إنه دين مذكر أو دين ذو رجولة Masculine يعجب الإفريقي بيساداته وقوته، ثم يقول « إن المسلم لا يهبط إلى مثل هذا الانحدار الخاضع الذي يهبط إليه الزنحج الوثني ، فبينما يفخر الزنحج الوثني إذا أتيح له أن يلف نفسه بخمرة عتيقة يلقها الأوروبي إليه ويعرض نفسه للسخرية بهذه القدوة الهزلية — لا يخطر على بال المسلم أن يستبدل ملابس الأوروبيين مردائه الفضفاض والمنسوته السعفية » .

ويضيف إلى ذلك أن الإسلام متى بدأ في مكان لم ينتظر مدداً من الخارج للتوسع في جواز ذلك المكان ، فعظم التبشير به إفريقي لا يحتاج إلى معونة من غير الإفريقيين .

وقد ألف الأستاذ نادل Nadel النمسي أستاذ علم الأجناس البشرية بجامعة النمسا الوطنية — كتاباً مفصلاً عن عقيدة النيوب في بلاد النيجر وأثر الإسلام فيها قال فيه : « إن الإسلام يطوى جميع العقائد والشعائر ويلحق به الأتباع ولا يدعهم شراذم هنا وهناك ويتطلب الإيمان التام ولا يكتفي بعلامات الموافقة والمجاراة » .

ويقول البروفسور مكلان في كتابه « إفريقية تنهض ، Africa Emergent » إن الجانب الإسلامي في بلاد النيجر قد أنمي فيه ما يحسب الآن ثقافة مقررة بمعنى الكلمة الصحيح ، وقد تلقت هذه الطوائف حكمة جمة قد يكون القليل منها اليوم هو الحقيق بان ينسى » .

وبديه أن كل اعتراف من هذه الاعترافات يستتبع وراءه خطة

الحذر والحيلة للمستقبل ، ولكن المستقبل سيكشف للإفريقيين
ولا ريب حيلته في مقاومة هذه الخطط أو محاذرتها واتقاءها
من جانب .

أما الأمل الذي يتخيل أمام المستعمر البريطاني في هذه القارة
فهو تأليف دولة شاسعة من ولايات متحدة تتصل كل مجموعة منها
مع المجاميع الأخرى بصلة المحالفة ، وقد شرح صاحب كتاب
« قارة الغد » برامج هذه الولايات . وقال إن مصلحة الأوربي
والإفريقي فيها لا تتعارضان ولا تتناقضان بل تتوازيان ، وإن إفريقية
إما أن تحكم على هذا المثال أو تصير في نصفها الجنوبي على الأقل
وطناً مدججاً في الشعوب الشرقية التي تهجر إليها وأكثرها الهنود ،
وقد تطمع الشيوعية في استخلاصها لها من مصير كهذا أو مصير كذاك .

ويوشك الرأي الغالب على هذه المصنفات أن يتجه إلى غاية
واحدة : وهي ادخار إفريقية لتزويد الأمم الغربية بمواد الغذاء
وخامات الصناعة ، مع بعض الرجاء في العثور على المعادن والزيوت
في باطن أرضها ، حيث يتيسر تصنيعها إلى جانب مناجمها .

وقليل من الكتاب الغربيين من يطيب له أن ينظر بعينه جميعاً
مفتوحين إلى الغد الذي لا مهرب منه في قارة « الغد » كما يسمونها .
فهما يبلغ من نجاح خطط الاستعمار أو التبشير فلن تكون إفريقية
في النهاية لغير الإفريقيين ، ومن داخلها سيخرج لهم من ينزع
سيادتها من أيديهم ، ومن يناصبهم العداء لأنهم قد استأثروا دونه
زماً بهذه السيادة ، ولا يسره يومئذ أنهم استعمروه أو بشروه

الغسد

والغد غيب مجهول .

ولا حاجة بنا إلى التنجيم عن حوادثه وحروفه ، فإنه بأية حال
إن يخلو من الحوادث والصروف وإن يخلو حوادثه وحروفه من
سلم وحرب ونصر وهزيمة ودول تعاو ودول تهبط وعلاقات تتصل
وعلاقات تنفصل ، وصداقة تنقلب إلى عداوة وعداوة تنقلب إلى
صداقة ، وتكرار على نسق الماضي وبدع جديد كأنه من الماضي
المتكرر ، فما خلا زمن قط من بدع جديد .

إنما نحن آمنون إذا واجهنا الغد المجهول بعدته ، وإنما نحن
مستعدون له بخير ما نستطيع إذا خرجنا من الماضي الطويل بعبئته
الواقية ، وعبرته الوافية أن العقائد أثبتت من السياسات وأن الأمم
أثبتت من الدول ، وأن الجاهل أعدى لأمة من أعدى أعدائها ،
وما نكب الاسلام قط من حرب صليبية أو من حرب استعمار
كما نكب من أبنائه الجهلاء .

ولا نرجع إلى ألف سنة مضت منذ ابتدأت الحروب الصليبية
لنرى مصداق هذه العبر واحدة بعد واحدة .

كفى أن نرجع إلى أول هذا القرن العشرين ولما ينصرم منه
غير نصفه أو أكثر من نصفه بسنوات . فقد كانت في أوله دول

يخشى منها على قارة كاملة ، وكانت فيه دول تشبثت بكل بقعة من
بقاع المشرق أقصاه وأدناه ، وكانت فيه دول تعزل العالم القديم
وتطلب من العالم القديم أن يعزلها ، فتغيرت المواقف وتغيرت
السياسات وتغيرت الدول وتغيرت العلاقات ، وقاتل الناس
في صفوف ثم قاتلوا في غير تلك الصفوف ، ولم تتغير معالم الأرض
ولكن تغيرت الحدود وتغيرت الدول التي تقوم بين تلك المعالم والحدود .

فهما تكن السياسة فالحقيقة أثبت منها .

ومهما تكن الدولة فالأمة هي الباقية .

ومهما يكن الخطر فالجهل في كل معترك ومع كل خصم أو منازع
هو أخطر الأخطار .

وإذا بقي للإسلام إيمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة
فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ولا من أقوياء الغد المجهول ، وأخطر
من كل خطر أن يتخلف مكان العلم والبصيرة ويتقدم مكان
الجهل والغباء .

ومثل من أمثلة الجهل والغباء أن يطول اللجاج ويستخدم الهياج
على التحريم والتحليل ، ومحصول ذلك كله أهون من خطر اللجاج
وخطر الشقاق والهياج .

إن الجهل الذي يغري صاحبه بتحريم البرق واتهام العاملين
في الكهرباء بمخالفة الشيطان هو أخطر على الإسلام من كل
حلال وحرام .

ولقد تطول الأقاويل في حل التماثيل وتحريمها وفيما هو تمثال
وليس بصورة أو ما هو صورة وليس بتمثال . ولكن التماثيل

والصور على اختلاف أوصافها وتعريفاتها قد وجدت بين أبناء
الاديان من المسيحيين واليهود والبراهمة والبوذيين ولم نسمع قط أنهم
سجدوا لتمثال بطل عظيم أو تعبدوا لضريح نابغ مشهور ، وليست
عقيدة المسلم بأضعف من عقائد الأديان عن مدافعة هذه الأخطار إن
خيفت منها الأخطار ، فلا يمتنع البحث في الحلال والحرام ولا في
الصحيح والباطل من عقائد المعتقدين ، ولكنه إذا بذل فيه من
الجهد فوق حقه ، وأضعاف خطره ، فذلك هو الخطر الأكبر وذلك
هو الجهد العقيم ، واحتفاظ المسلم بإيمانه أمام هذه المحرمات أيسر
جداً من احتفاظه بالإيمان أمام جاهل يكفر القائلين بدوران الأرض
أو تسخير الكهرباء أو الاستماع إلى المذياع من غير ذى صوت
منظور ، ثم يزعم أنه يفتى بحكم الدين فيصدقه من يجهل الدين ويكفر
بالدين من يحمل عليه جريرة قتواه .

ولا خطر على المسلمين أو بل من هذا الخطر ، فإذا اتقوه وعادوا
بالإيمان على علم وبصيرة فلا خطر عليهم من الدول والسياسات ،
ولا من ذوات اليمين ولا من ذوات اليسار .

ولا ينسى المسلمون أنهم مجموعة من الأمم في عصر المجموعات
وإن لم يكن عصر الجامعات كما عرفت قبل هذا القرن العشرين .

لا ينسى المسلمون أنهم مجموعة من أمم العالم فإن العالم لا ينسى
هذه الحقيقة ولا يزال يذكرها ويتذكرها ويرتب عليها ما يرتبه من
الخطط والمواقف بإزائها .

وعصر المجاميع غير عصر الجامعات ، أو هكذا تمثل لنا

المجاميع والجامعات باصطلاح الزمن مع التقارب بينها في مادة اللغة العربية ، فالمجموعة قائمة سواء أرادها أصحابها أو لم يريدوها ، والجامعة لا تقوم إلا إذا أريدت لغرض مقصود ، وغالباً ما يكون هذا الغرض وحدة في الحكم أو في السياسة أو في مشروع من مشروعات المحالفة والمعاهدة .

والإسلام شاء أو لم يشأ مجموعة بين مجاميع الأمم الكبرى في القرن العشرين ، وليست مجاميع الأمم مقصورة على الكتلة الشرقية التي يتزعمها الروس أو الكتلة الغربية التي يتزعمها الأمريكيون والانجليز ، ولكنها أكثر من ذلك وأحق أن تعرف جميعاً أو يعرف بعضها على سبيل التمثيل ثم يقاس عليه .

فالمجموعة الشرقية والمجموعة الغربية معاً تتخللهما مجموعة واحدة يمكن أن تسمى بمجموعة الكنيسة الرومانية ، ويظهر موقف المجاميع في هذا العصر من موقف الكنيسة الرومانية بين الكتلتين .

إن الكتلة الغربية يقودها إنجيليون ، والكتلة الشرقية يقودها أناس يقضون على الكنيسة الروسية الكبرى . ومن هنا يتميز موقف الكنيسة الرومانية وتحرص على بقاء أتباعها من أهم العالم على حدة في الشؤون الروحية ، ومن هنا أيضاً تظهر في أمريكا الجنوبية وفي أوربة الوسطى وأوربة الغربية برامج في السياسة لا تنضوي كل الانضواء إلى الكتلتين ولا تنفصل عنهما كل الانفصال .

ومجموعة الأمم الإسلامية مقصودة ، ولا بد أن تقصد ، بخطة واحدة في بعض الأحوال .

فإذا غفلت عن هذا الأمر الواقع أصابها ما يصيب كل غافل عن
الأمر الواقع ، ولسكنها لا تنبهه له بداهة لتجتمع على عدوان في
الاستغلال أو على عدوان في التبشير ، وإنما تنبهه له لتدفع العدوان
من هذه الجوانب كافة ، وتجعل لها صوتاً مسموعاً في كل سياسة
تصاب بها على سوء النية أو حسنها ، وتربأ بنفسها أن تكون بحيث
كانت تيم في رأى الشاعر .

ويقتضى الأمر حين تغييب تيم ولا يستأمرون وهم شهود
ومتى استطاعت هذه المجموعة العالمية أن تسهم في أمانة
« الإنسانية » وأن تعطيها من عندها ولا تعيش عالة عليها ، وأن
تؤدي رسالتها للحضارة والسلام وأن تفرض وجودها على من
يهملونهم ولا يحسبون حسابها فذلك حق الإسلام منها ، وحقها هي
من الإسلام .

وأمامها على الدوام « إيمان على هدى وبصيرة » ولا خذلان لمن
يقتدى بهذا الإمام .

المفردات

صفحة

٣	قوة غالبية
١١	وقوة صامدة
٢٣	عقيدة شاملة
٢٦	الإسلام والمسلمون في القرن التاسع عشر
	(١) الإسلام
٤٦	(٢) المسلمون
٦٤	أمم غير مستقلة
٨٠	أمم أخرى
٨٢	وادي النيل
٨٥	البلاد العربية
٨٧	الهلال الخصيب
٨٩	أفريقية الشمالية
٩١	مسلمو الحبشة
٩٣	السودان
٩٤	التبشير على الإجمال
١٨٣	

٩٦	الدعوات ونهضات الإصلاح
١٠١	الدعوة الوهابية
١١٠	السنوسية
١١٤	طرائق أخرى
١١٨	المصلحون المعلمون
١٣٠	السياسة المصلحون
١٣١	المهديون
١٤٧	تعقيب
١٥١	الدعوات ونهضات الإصلاح في منتصف القرن العشرين
١٥٨	في نظر الغرب
١٧٢	آسيا وأفريقية
١٧٨	الغند